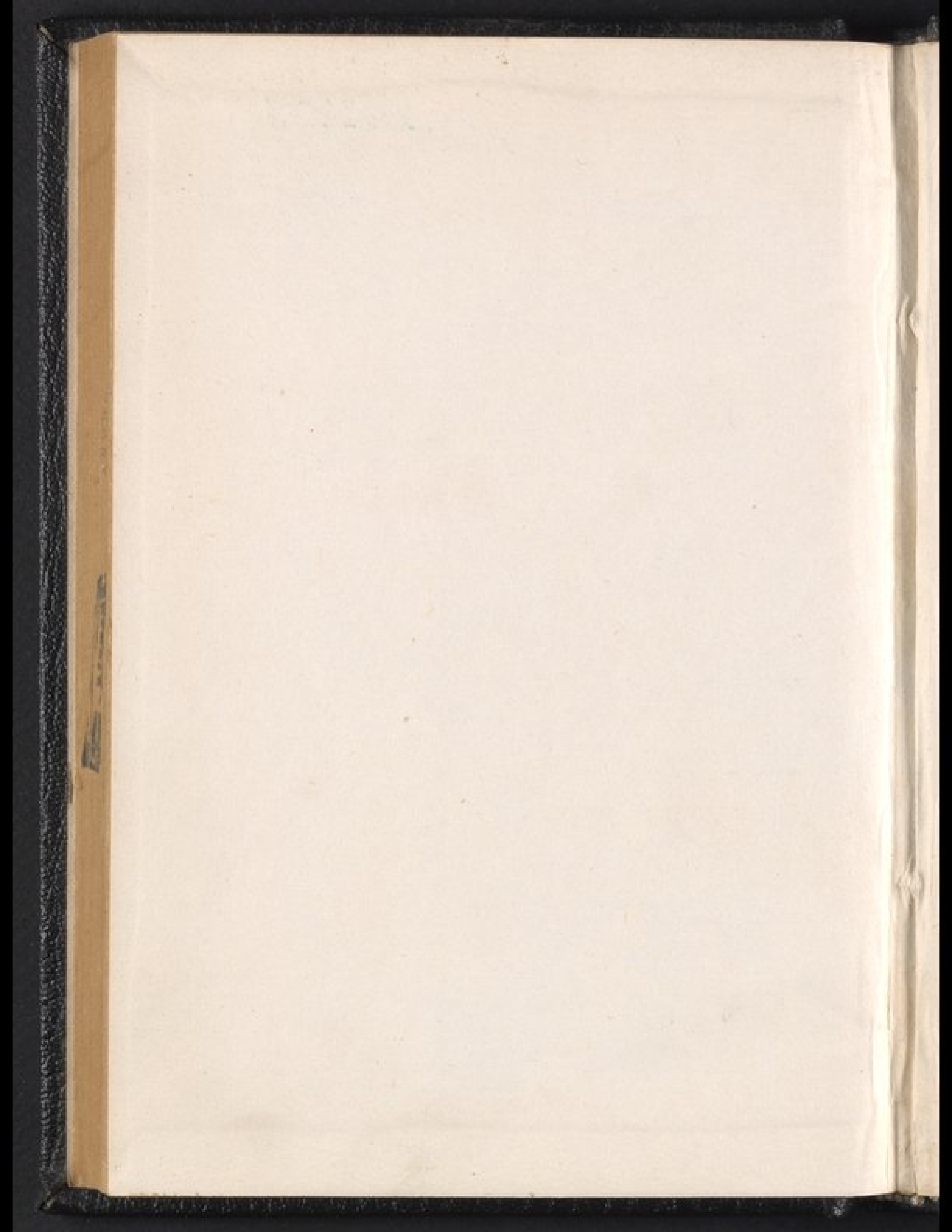
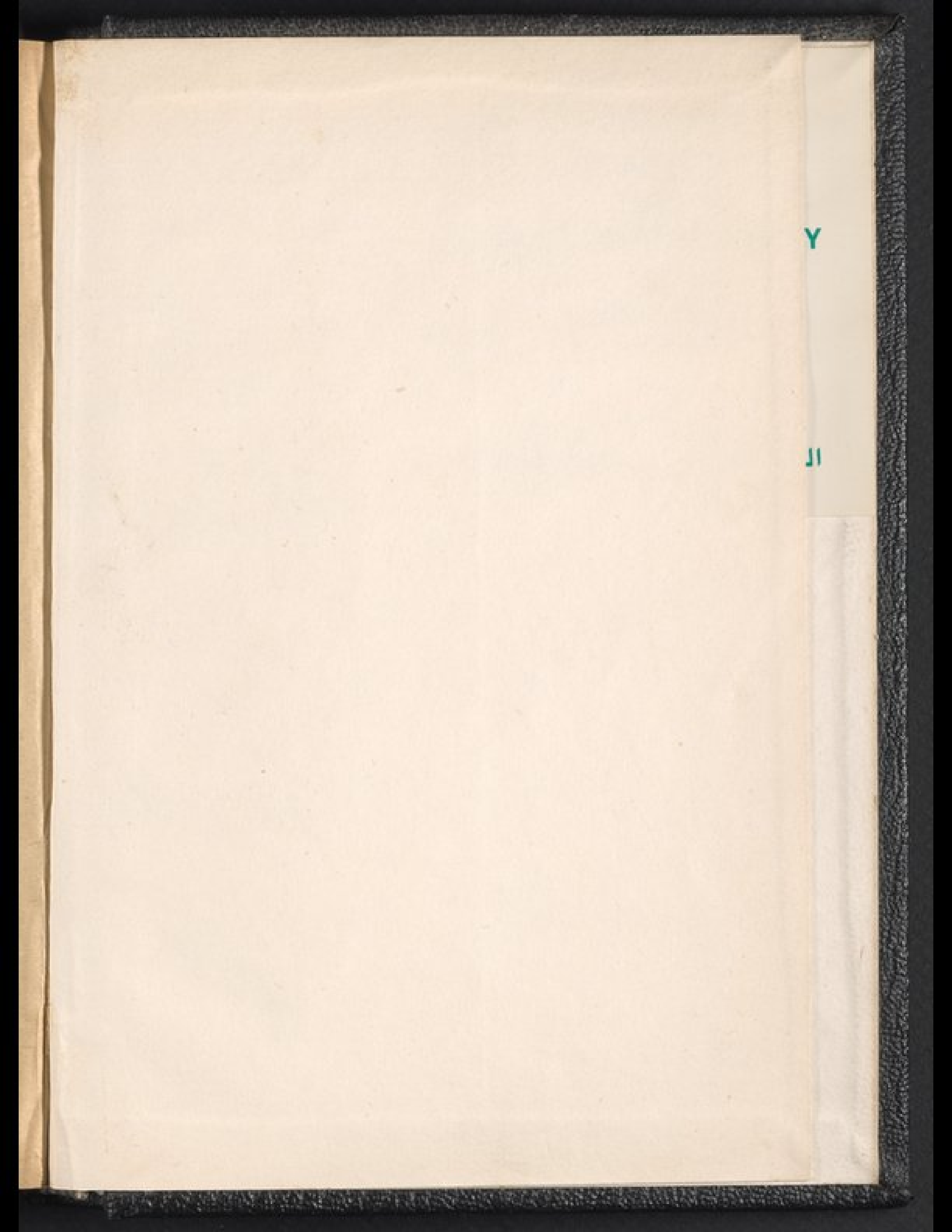
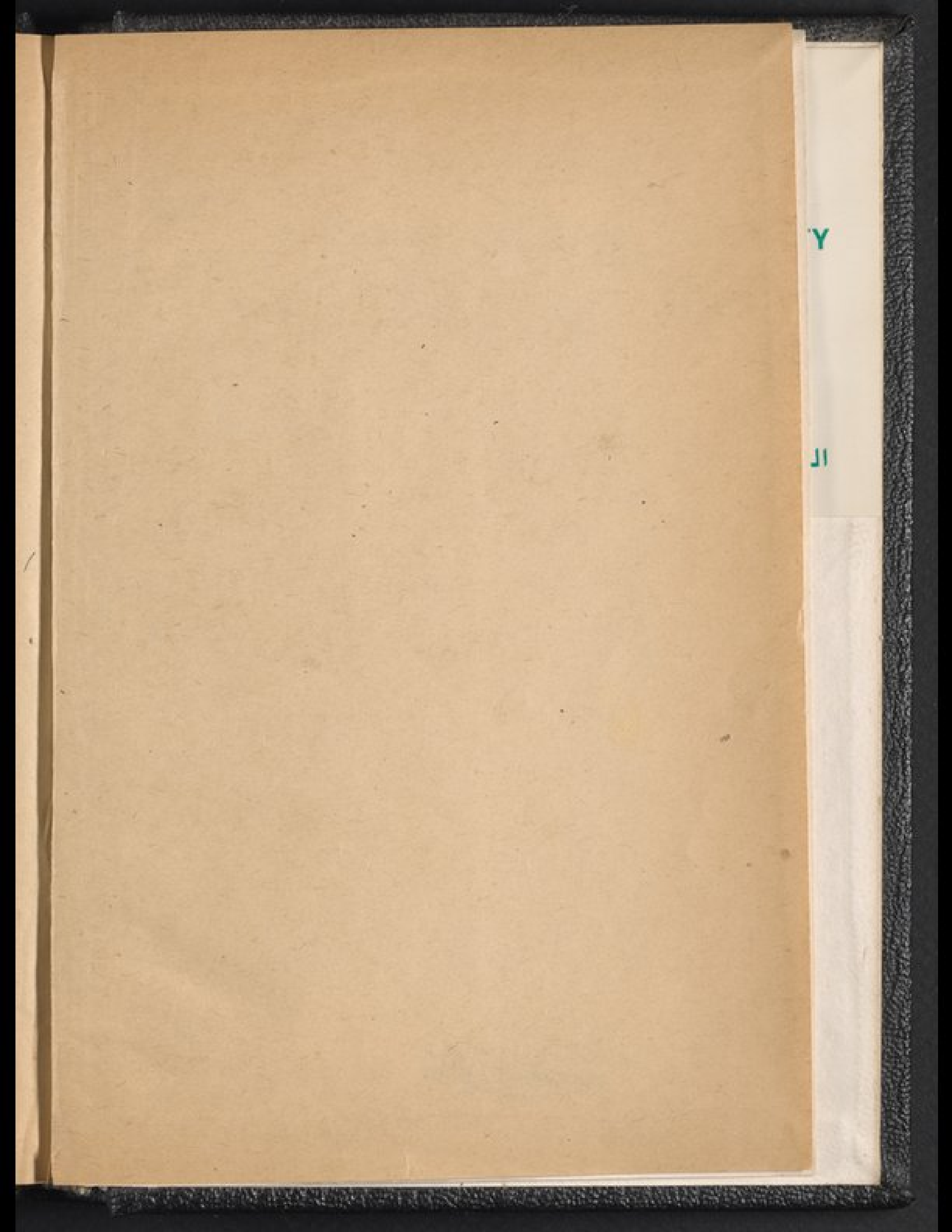






ماهي النهضة



بسلامة موسى

ما هي النهضة

سلامة موسى للنشر والتوزيع
تراث من الكفاح الهادف

ص٠ب ١٩١٢ بالقاهرة

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة . الفجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦

مقدمة

نحن فى نهضة فيجب أن نفهم معانى النهضة

ويجب أيضاً ألا نقف منها موقف المتفرجين ، إذ علينا أن نعمل فيها ونعاونها ونعيش اتجاهاتها نحو المستقبل

النهضة ثراء وقوة وثقافة وصحة وشباب . ولكن قد يكون الثراء مؤلفاً من نقود زائفة كما قد تكون القوة والثقافة والصحة والشباب خداعاً وليس حقيقة

* * *

كان « ابساماتيك » فرعوناً على مصر . تولى الحكم فيما بين ٦٦٦ و ٧١٢ قبل الميلاد ، وهو مؤسس الأسرة السادسة والعشرين ، وكلمة « مؤسس » تعنى أنه كافح أعداء ونصب أهدافاً ودرس وحقق

ولكنه كان رجلا خالص النية فى خدمة وطنه أكثر مما كان ذكياً بصيراً بمستقبل بلاده . وكان أعداء مصر يحيطون بها . فمن الغرب غارات . ومن الجنوب غارات . وفى الشرق هزائم . والمستقبل مظلم والأمة مفككة ، وولاء الشعب موزع بين الكهنة

والعرش . والدسائس لا تنقطع

وفكر الرجل فى نية خالصة وعزم حديد فيما أصاب مصر . وذكر تلك القرون الأولى حين كان « خوفو » يقول : شيدوا لى هرماً ، فما هى إلا السنوات حتى يراه ينطح السماء . وكان ابساماتيك يرى الأهرام كما نراها نحن الآن . وكان يقرأ التاريخ فيرثى لبلاده وضعفها

وفكر . ثم فكر . وانتهى أخيراً إلى أن مصر لن يعود إليها مجدها الغابر إلا إذا رجعت إلى تقاليد هؤلاء الأسلاف ، فأحيت الشعائر القديمة ودرست نصوص الديانة القديمة ، ونهضت بالفنون على أساليبها القديمة . بل زاد على ذلك بأن عاد إلى سقارة حيث الأهرام ، أى حيث قبور الفراعنة من الدولة القديمة ، فقال بوجوب العودة إلى دفن الفراعنة فيها

وحسب ابساماتيك أن هـــذه نهضة ، مع أنه كان يفصل بينه وبين خوفو من السنين مثلما يفصل بيننا نحن وبين ابساماتيك نفسه

« عودوا إلى القدماء »

كان هذا شعاره . وكان شعار الإفلاس ، لأن مصر كانت فى عصره أسمى مما كانت أيام خوفو كما يمكن أن نعرف ذلك مما قام به خلفه « نيخاو » الذى هيأ سفناً تدور حول أفريقيا . أين بناء الأهرام من مثل هذا العمل العظيم ؟

إن ظروفاً جديدة نشأت فى الدنيا المحيطة بمصر . وكانت تحتاج إلى استنباط جديد

ولم تكن تحتاج إلى الرجوع إلى الوراء نحو ٢٥٠٠ سنة تقريباً

ولم تمض على مصر بعد ذلك مائة سنة حتى كان الأعداء من الأشوريين والفرس يكتسحونها ويغتالونها . ولم ينفعها شعار : عودوا إلى القدماء

* * *

فيما بين سنة ٥٠٠ وسنة ١٠٠٠ استولى الظلام على أوربا وكان ظلاماً حالكاً . لأن الثقافة كانت وقفاً على الرهبان ، يبحثون جغرافية العالم الآخر وهم لايدرون جغرافية هــذا العالم . ويشرحون للناس كيف يجب أن يموتوا بدلا من أن يشرحوا لهم كيف يجب أن يعيشوا . ويشتبكون فى مشكلات « ذهنية » أولى بها أن يبحثها الأطفال وأن يضحكوا منها ، مثل قيمة الرقم ٧ فى الدنيا والآخرة . ومثل عدد الملائكة الذين يمكنهم أن يقفوا على رأس إبرة . ومثل مكان الروح من الجسم . إلخ . إلخ .

كانوا يبحثون العقائد لا الحقائق

ولكن رويداً رويداً تنبه الأوربيون إلى أنهم جهلاء ، ونظروا حولهم فوجدوا أن الأمم الإسلامية فى أسبانيا وفى الشرق تحيا حياة القوة والذكاء . فقصدوا إليها يدرسون وينقلون مؤلفات ابن رشد وابن سينا وابن طفيل وابن حزم ، وغيرهم

ثم لم يقنعوا بما ألفه المسلمون ، إذ هم نقلوا أيضاً للغة اللاتينيــة مؤلفات الإغريق القدماء التى كان المسلمون قد ترجموها إلى اللغة العربية .

فعرفوا أفلاطون وأرسطوطاليس عن طريق اللغة العربية

واستطاعوا أن يعرفوهم أكثر عندما هاجر الإغريق من القسطنطينية

إلى أوربا الغربية . فأصلحوا أخطاء الترجمة التى كان المترجمون المسلمون قد وقعوا فيها عندما نقلوا أرسطوطاليس وأفلاطون وغيرهما إلى اللغة العربية

* * *

ومضى الناهضون يجترئون ويفكرون .

ولكن رويداً رويداً اتضح لهم أنهم قد خرجوا وتخلصوا من قدماء الكنيسة إلى قدماء الإغريق

قدماء بدلا من قدماء . .

وأن العرب لايختلفون عن القدماء لأنهم اعتمدوا عليهم ، أى على القدماء . حتى إن ابن رشد كان يعتقد أنه لم يخلق فى العالم إنسان مثل أرسطوطاليس

وعندئذ تساءل هؤلاء الناهضون :

« هل المعارف الحقة الصادقة تؤخذ من الكتب القديمة أو تؤخذ من الطبيعة ؟ »

فقد كانوا يدرسون الطب مثلا فى كتب جالينوس وابن سينا ولكنهم لم يكونوا يعرفون تشريح الجسم البشرى

وهنا نجد رجلا ألمانى الأصل سويسرى الوطن ، ولد فى ١٤٩٣ ، يدرس القدماء ثم يلعنهم بدلا من أن يبارك عليهم

هو « باراكيلسوس »

والاسم عجيب . فإنه اختاره لنفسه وترك اسمه الميلادى . ومعنى هذا الاسم « فوق كيلسوس »

وكيلسوس هـــذا الذى أعلن أنه فوقه هو عالم رومانى كانت له موسوعة تدرس فى الجامعات أيام القرون الوسطى بل بعدها

أى أن باراكيلسوس يقول : أنا فوق القدماء . أنا فوق عالمكم المحترم كيلسوس

ولم يكتف بهذا

فإنه كان يلقى محاضراته فى مدينة بازيل باللغة الألمانية . وهنا قف قليلا :

ذلك أن التعليم كان إلى وقته وبعد وقته باللغة اللاتينية فى جميع جامعات أوربا . ولكنه هو أبى أن يلقى محاضراته بهذه اللغة القديمة كان شعبياً . كان عامياً . أى كان مع الشعب

واجترأ على أن يعلم بلغة العامة ، اللغة الألمانية ، وكان أول من أقدم على ذلك فى أوربا جميعها

وكانت محاضراته خاصة بالطب والعلاج

وذات صباح ، بعد اختبار وقلق ، وتساؤل وأرق ، رأى أن يقف الموقف الحاسم فى تاريخ أوربا ، بل فى تاريخ الإنسان

فلم يذهب إلى الكلية لإلقاء محاضراته كما كانت عادته

ولكنه جمع مؤلفات ابن سينا ومؤلفات جالينوس وحملها على ظهره إلى أن وصل وهو يلهث إلى ميدان المدينـــة . وهناك وضعها أمامه على الارض وشرع يخطب :

إن القدماء ليسوا أفضل منا ، وهم لا يعرفون مقدار ما نعرف

إن دراسة القدماء نافعة ، ولكن دراسة الطبيعة أنفع منها

إن الكتب القديمة تحفل بالأخطاء ولم يكن مؤلفوها معصومين

إن الطب تجارب وليس تقاليد . إننا نتعلمه من الطبيعة وليس من الكتب

واحتشد حوله ، فى سوق المدينة ، أى الميدان العام ، مئات من الطلبة والأساتذة والعامة والخاصة . فلما انتهى من خطبته أشعل النار فى كتب جالينوس وابن سينا

* * *

لقد انطلقت فى أيامنا حيوية جديدة فى بلادنا ، تجدد القيم والأوزان فى معانى الحياة والاجتماع والرقى . ولكننا لا نزال فى اختلاط وارتباك وتردد ، لا نعرف هل نأخذ بالقيم القديمة أم بالقيم الجديدة

ما هى نهضة ؟

هل هى القيم القديمة ؟

إن أسوأ ما أخشاه أن ننتصر على المستعمرين ونطردهم . وأن ننتصر على المستغلين ونخضعهم . ثم نعجز عن أن نهزم القرون الوسطى فى حياتنا ونعود إلى دعوة : « عودوا إلى القدماء »

هل نعيد مأساة ابساماتيك؟ . هل يعنى الرقى والتقدم أن ندفن موتانا فى سقارة ؟

القرون الوسطى

تطلق عبارة « القرون الوسطى » على فترة من الزمن تبلغ نحـــو ألف سنة ، تبتدىء من سقوط الدولة الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ على يد الجرمان وتنتهى بسقوط الدولة الرومانية الشرقية سنة ١٤٥٣ على يد الأتراك . وبدهى أن هذا التحديد بالسنوات هو اصطلاح تاريخى فقط . وإلا فإن الواقع يثبت أن بذور القرون الوسطى ظهرت فى الدولة الرومانية منذ القرن الأول للمسيح ، كما أن هذه القرون لم تنته بسقوط القسطنطينية

ولـكى ندرك مدى الرقى الذى يتمثل فى النهضة أو النهضات الأوربية يجب أن نعرف عمق الانحطاط الذى سبق هذا الرقى . أى يجب أن نعرف الهاوية التى هوى إليها الفكر البشرى فى القرون الوسطى

والقرون الوسطى غير « القرون المظلمة » وإن كان كثيرون يطابقون بينهما . والمعول عليه الآن أن تطلق صفة الظلام على السنين الخمسمائة الأولى،أى من سنة ٤٧٦ إلى سنة ٩٧٦،لأن هذه الفترة كانت فى أوربا فترة الركود الفكرى .أما بعد ذلك فإننا نجد بوادر النهضة وبواكيرها

وقد قلنا أن بذور القرون الوسطى ترجع إلى الدولة الرومانية . وهذه الدولة التى بقيت متماسكة خمسة قرون متوالية. كانت قوتها تنحصر فى هذا التماسك . ولكن منذ القرن الأول بدأت عوامل التفكك تعمل فيها حتى إذا كان القرن الثالث والرابع استفاضت الفوضى وأغار الجرمان على جسم الدولة . ولكن يجب هنا أن يذكر القارىء أن الغارة لم تكن أجنبية، لأن هؤلاء الجرمان كانوا منذ القرن الأول للميلاد يتسربون إلى الدولة ويسرون فى عروقها ، تؤلف منهم الجيوش الجرمانية المحصنة لرد غارة الجرمان ، ويعين منهم القواد . حتى إذا كانت الغارة الأخيرة لم يكن الجيش المغير أجنبياً لأنه كان يجد إينما حل أناساً من الشعب الذى ينتمى هو إليه

وكان يربط الدولة أيام عزها جميعها امبراطور يعبده جميع السكان ويضعونه فى مصاف الآلهة . وكان لهم جميعهم قانون واحد تجرى أحكامه عليهم هو القانون الرومانى. وكانت الدولة مع ترامى أطرافها تتصل بالدروب الرومانية فتنتقل أخبارها وجيوشها ومديروها بسرعة فائقة

أما أيام الضعف والتضعضع فقد طرأ الفساد إلى مكامن القوة ومراكز الاتحاد . وأول ذلك أن استنت سنة فى انتخاب الإمبراطور جعلت للجيش سلطاناً على الانتخاب، فصار هو الذى يولى ويعزل . وصارت الحروب الأهلية تنشب بين جيوش الدولة لأن بعضها يناصر امبراطور دون الآخر . ثم دخلت المسيحية فمحت عبارة الإمبراطور ومحت بذلك وحدة الدولة ووحدة الولاء . وتفشى الترف فى القصر أو القصور الإمبراطورية وكثرت تكاليفها، وأصبحت تكاليف الجيش

عبئاً كبيراً على المنتجين فى الأمة ، وهم جمهور المزارعين . فزادت بذلك الضرائب وصارت جبايتها التزاماً . لايعرف المزارع كم يجب عليه أن يؤدى . وإنما على الملتزم أن يؤدى للدولة مبلغاً معيناً من المال من ناحيته ، وله لقاء ذلك حق الاستعانة بالجيش فى هذه الجباية الظالمة التى كانت تقع بأشدها على المزارعين النشيطين . واستوى بهذه الضرائب الجد والتراخى ، لأن الملتزم صار يأخذ كل مايجده من الغلات وصار الفلاحون يهجرون القرى إلى المدن، حتى اضطر الإمبراطور إلى منعهم من هجرة قراهم . ومن هذا المنع نجد البذرة الأولى للعهد الإقطاعى ، حين أصبح الفلاحون عبيداً لمواليهم . وقد بقيت العبودية فى فرنسا إلى سنة ١٧٨٩ حين هبت الثورة الكبرى . ففى مدة القرون الوسطى نجد أنه كان لا يجوز للعامل فى الضيعة أن يتركها إلا بإذن مولاه

ثم كان تفشى الرق سبباً آخر للضعف والسقوط . وامتلأت الدول بالأسرى الذين بيعوا رقيقاً . ووجد أصحاب الضياع أن استخدام العبيد خير من استخدام العامل المأجور وأوفر عليهم وأبلغ ربحاً . فاستكثروا من العبيد ، وعمت الفاقة طائفة العمال الرومانيين

وساءت الزراعة ، وقلت الحاصلات ، فاضطرت المدن الكبرى إلى أن تتجر وتتبادل سلعها مع الأقطار البعيدة دون الريف الرومانى . فانتقلت النقود من روما إلى هذه الأقطار ، وقلت بين الرومانيين ، حتى كان الأباطرة ينزلون عيار الذهب فى الدينار من وقت لآخر . أى أن النقد « تضخم » فنقصت قيمته وزادت أثمان السلع . وعمت الفاقة . وتناقص السكان . وكان هذا التناقص مغرياً لقبائل الجرمان

بالتسرب والانسلال رويداً، ثم الغارة الأخيرة

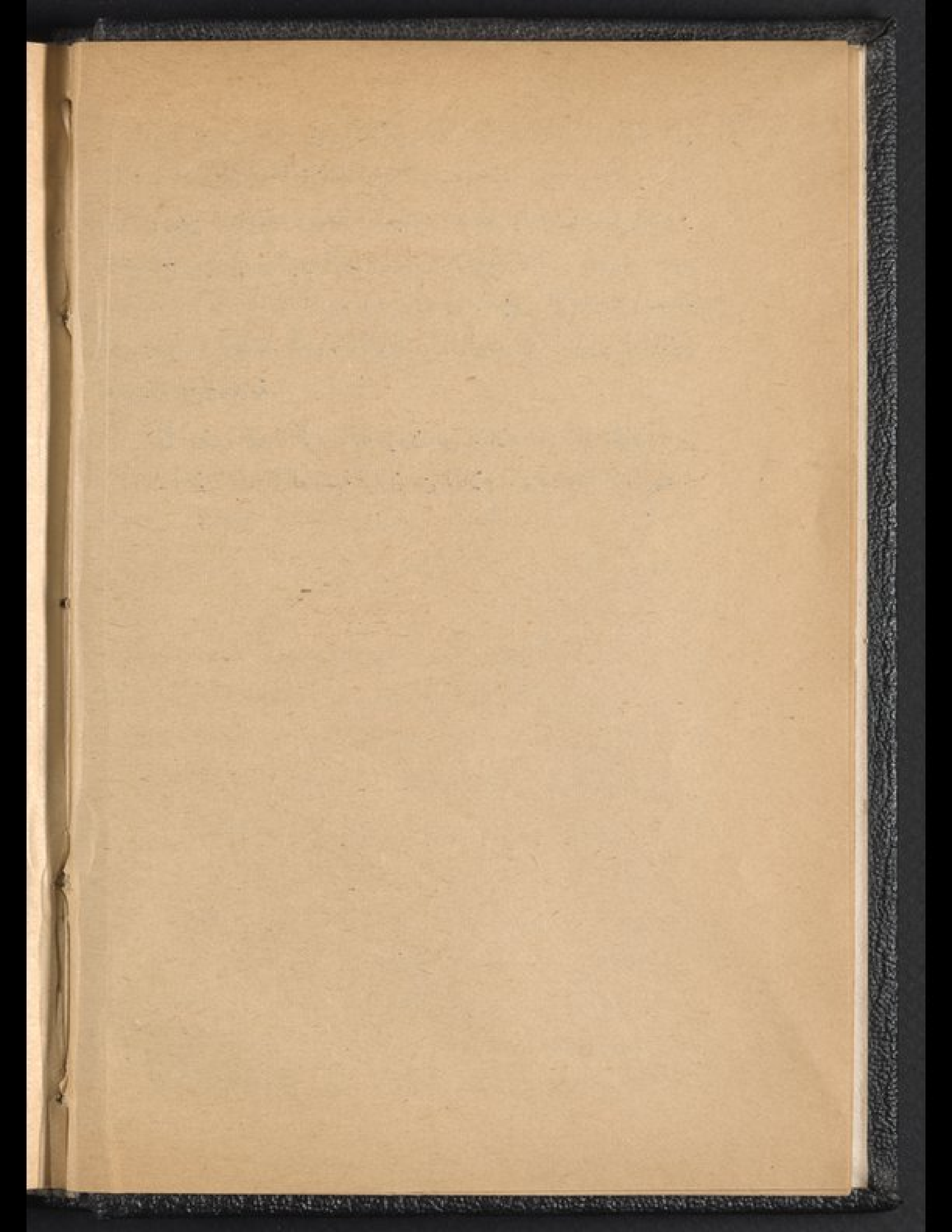
وقد ذكرنا المسيحية من حيث إنها محت الوحدة الرومانية التى كانت تتجسم فى عبادة الإمبراطور. ولكن دخول هذه الديانة الجديدة على ما نرى فيها من سمو المبادىء ونبالة الحياة التى تنشدها، كان سبباً كبيراً فى هدم الدولة. فقد حدث شقاق بين أبناء الأمة قطع اتحادها. وحسب القارىء أن يعرف أن «قسطنطين» أول الأباطرة الذين آمنوا بالمسيحية ترك روما وأسس هذه العاصمة الجديدة فى شرق الدولة لكى لا يرى المعابد الوثنية. وهو فى ذلك مثل «اخناتون» حين هجر طيبة ورحل إلى تل العمارنة يؤسس عاصمة جديدة لا يرى فيها صنم آمون وإنما يرى رع

وظهرت الكنيسة منذ أول ظهورها بمظهرها الذى عرفت به أيام القرون الوسطى فأحرقت الكتب وهدمت الاصنام والمعابد. ولذلك يجب أن نرد «محكمة التفتيش» التى استطار شرها مدة القرون الوسطى إلى هذه البذرة التى ألقتها الكنيسة أيام تضعضع الدولة الرومانية

والقارىء لتاريخ الدولة الرومانية لا يسعه إلا أن يقابل بين تضعضعها ثم سقوطها وبين ما جرى للدولة العباسية فى بغداد. فالجرمان وانسلالهم إلى جسم الدولة، ثم غارتهم الأخيرة، يشبهون الأتراك وانسلالهم إلى جسم الدولة العربية فى بغداد ثم طغيانهم ثم محو الدولة على أيدى المغول. وجباية الضرائب وانحطاط الزراعة فى العراق لا يختلفان كثيراً عما كانت عليه الحال فى إيطاليا. حتى المقابلة فى الآداب لتجوز هنا أيضاً، فإن الأدب العربى فى القرنين الأول

والثانى لا يعرف التزاويق والألاعيب البلاغية ، وهو فى ذلك مثل الأدب الرومانى فى القرنين السابق والتالى للميلاد المسيحى . ثم يشترك فى التزاويق السخيفة، ويذهب اللباب ، وينحط التفكير ، وتبقى القشور والبهارج . وينسى الرومانيون لغتهم اللاتينية وينسى العرب لغتهم العربية . . . ويأخذ أمراء الجرمان فى تأسيس الامارات المستقلة عن روما ، ويأخذ أمراء الأتراك والمماليك فى تأسيس إماراتهم المستقلة عن الخلافة

وكما أعقب الدولة الرومانية قرون من الظلام ساد فيه التنطع الدينى كذلك أعقب الدولة العباسية قرون من الظلام ساد فيه هذا التنطع نفسه



انحطاط الثقافة فى القرون الوسطى

ليس شك فى أن السبب الأساسى لانحطاط الثقافة أو ارتقائها أو صبغها بلون خاص وتوجيهها إلى ناحية معينة دون أخرى هو السبب الاقتصادى . فإن الحال الاقتصادية كما تقرر لون الحضارة الراهنة كذلك هى ، إلى حد بعيد ، تقرر لون الثقافة الراهنة . ويكفى القارىء أن يعرف هنا أن الثقافة فى أيامنا لا تفشو وتتفرع ، وأن التوليد فى الفنون لا يزكو ، إلا إذا كثر القراء وتوافرت المدارس وتعددت المطابع وراجت سوق الكتب وصار العلم والأدب يدر على العالم أو الأديب ربحاً . وهذه حال تحتاج إلى الثروة والسعة والرخاء . أما إذا ضاقت البلاد بعيشها ، فلم تستطع إنشاء المدارس للكافة وتغذية المطابع وإعالة العاملين فى الأدب والفنون والعلوم ، فإن ميدان الثقافة يضيق ويكون من ضيقه ضمور الذهن الإنسانى بل ضمور الشخصية الإنسانية

فعلى القارىء أن يذكر أن وراء كل نهضة ثقافية حركة اقتصادية بعثت عليها ونبهت إليها . ونحن نقنع الآن بأن نشير إلى أن ميدان التجارة

أوفق للثقافة من ميدان الزراعة. فميدان الزراعة لركودها يقنع بما يشاكلها من ثقافة راكدة . بينما التجارة تطوف فى أنحاء العالم وتفتح الطريق للجغرافيا والتاريخ والملاحة والفلك . بينما الصناعة تحتاج إلى مكتشفات متوالية عن الكيمياء والطبيعيات وغيرهما من العلوم

كانت ثقافة مصر «الزراعية» فى أكثرها ، عقائد جزمية ومعارف مشتقة تخدم الدين . ولم يكن المصريون يعرفون النظرية أو الرأى . بل يمكن أن نقول أن أدبهم وفلسفتهم لم يستقلا يوماً من الأيام عن الدين . ثم ظهرت يونان « التجارية » فظهرت الفلسفة مستقلة من الدين كما استقل الأدب أيضاً منه . ثم ظهرت النظرية الهندسية وعرف شيء من الطبيعيات . ثم ظهرت روما « الصناعية » التى كان يتعجب اليونانيون أنفسهم مما فيها من منشآت هندسية ، فزكت الثقافة وبعدت عن الرجم الفلسفى الذى كان يحبه الأغريق واتجهت نحو المحسوسات والعمليات

ثم جاء الانحطاط مدة القرون الوسطى ، وعمت الفاقة الناس فأقفلت المدارس ولم يعد هناك جمهور قارىء يعيش معه النساخون . فندرت الكتب وزالت الطبقة المتوسطة. وجاءت المسيحية فزادت فى تفاقم الكارثة ، فإنها كافحت المدارس القديمة وحاربت العلماء . وانحصرت الثقافة عندئذ فى صوامع الرهبان ، وهؤلاء لم يقصدوا منها سوى غاية واحدة هى خدمة الدين . وهذا هو الانحطاط

فإذا أنت أردت أن تلخص لنفسك معنى الانحطاط فى القرون المظلمة ، وكيف هجر الذهن البشرى الفلسفة اليونانية والهندسة الاقليدية والنزعة

العلمية الصناعية فى روما إلى الدين والغيبيات فى صوامع الرهبان ، فاعلم أن هذا المعنى ينحصر فى أن الثقافة قد أصبحت تخدم شئون العالم الثانى بدلا من أن تخدم الإنسان على هذه الأرض

ففلسفة أرسطوطاليس أو أفلاطون لم يعد يقرأها الناس كى يصلحوا هذا العالم وينشدوا فيه سعادة دنيوية تزيد أجسامهم صحة وعقولهم نوراً ومدنهم نظافة وحكوماتهم عدلا . وإنما صاروا يدرسونها كى يعرفوا منها كيف يعيشون بعد الموت ، وما هى الطبيعة الآلوهية . وبعبارة أخرى نقول ان الانحطاط فى القرون المظلمة إنما يعنى انتقال الثقافة من البشرية والمادية ، أى خدمة البشر ومعالجة المـادة ، إلى الدينية ، أى خدمة الدين والغيبيات

ولهذا كانت النهضة قائمة على حركات بشرية ، أى النظر إلى هذه الدنيا كأنها الغاية التى ليس وراءها غاية تخدم . وأننا نحن البشر يجب أن تكون لنا آداب وفلسفات وعلوم لا تمت بأى صلة إلى الغيبيات . وأن علينا أن نعتمد على أنفسنا فى تحقيق السعادة على هذه الأرض نفسها، وألا نزهد عنها إيثاراً عليها للعالم الثانى ، كما هى النظرة الغيبية . ومما يضر الشاب المصرى ضرراً كبيراً جداً أن نخدعه ونوهمه أن النهضة الأوروبية التى أخرجت أوروبا من ظلمات القرون الوسطى تعنى شيئاً آخر

هذه النهضة تتضح لنا فى ثلاث حركات بشرية :

١ ـ الحركة البشرية الأولى : وهى التى ظهرت على أشدها فى القرن الخامس عشر فى إيطاليا ثم انفجرت فى أوربا . وقد اغتذت بدرس الإغريق والرومان وأخرجت الفنون الجميلة من قيودها الدينية السابقة

فجعلتها تخدم البشر

ولم يتجه الأدباء إلى الإغريق والرومان كى يحاكوهم ، فإن المحاكاة فى نفسها انحطاط . وإنما هم اتجهوا إليهم لأنهم رأوا منهم أشخاصاً يشبهونهم من حيث الرغبة فى مزاولة الفنون والعلوم والصناعات نشداناً للسعادة والاستمتاع فى هذه الدنيا . فاتجاههم هذا ليس سبباً أصلياً للنهضة وإنما هو إحدى نتائجها . أما السبب الأصلى فيرجع على الأرجح إلى عوامل اقتصادية . وقد نستطيع أن نقول بعد ذلك أن وقوف الاوربيين على ثقافة الإغريق والرومان قد دفعهم إلى الأمام فى نهضتهم. وقد يكون هذا صحيحاً . ولكننا عندئذ لا نرى فى هذا الدفع سوى أن النتيجة السابقة قد استحالت إلى سبب

وكما اتجه الناهضون من الأدباء إلى الإغريق والرومان كذلك اتجه العلماء منهم إلى العرب ، فعرفوا الطريقة الجديدة فى درس العلوم بالتجربة ونشدان الفائدة العملية المحسوسة منها

٢ ـ الحركة البشرية الثانية التى ظهرت فى فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر وكان القائمون بها ديدرو وفولتير وروسو وغيرهم من الأدباء والفلاسفة . وهى الحركة التى أعدت العدة الذهنية للثورة الفرنسية الكبرى، بل كانت هى نفسها الثورة التى كان منها إعلان حقوق الإنسان. وهى حقوق ما زال كثير من الأمم محرومين منها إلى الآن

٣ ـ الحركة البشرية الثالثة : هى التى ظهرت عقب ظهور داروين وكتابه « أصل الأنواع » فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . فإنها سمت بالإنسان إلى مركز السيادة للدنيا وجعلته ينظر إلى مستقبله كأنه

طوع إرادته . وهى حركة ما زلنا نحن فى غمرتها ولم ننته إلى نهايتها

وإذا تأمل القارىء هذه الحركات الثلاث كما سنفصلها، ألفى هذا الذى نقوله صحيحاً . وهو أن النهضة لم تعن فى الماضى ، وهى لا تعنى الآن شيئاً سوى « البشرية » . أى أن البشر ، أو الإنسان ، يجب أن يشتغل ويعتمد على نفسه فى هذا العالم ويعمل لحضارته وسعادته فى جراءة وفهم. إذ ليس له فى هذا الكون كله ما يعتمد عليه سوى عقله. وليس له خلاف هذا العالم عالم آخر يمكنه أن يطمع فى تحقيق سعادته فيه. وأن الانحطاط لم يعن فى القرون الوسطى ، وهو لا يعنى الآن فى الشرق أو الغرب ، سوى قصر الذهن البشرى على خدمة « ما وراء الطبيعة » ونشدان السعادة والهناءة فى غير هذه الأرض والاقتصار من الفنون والعلوم على خدمة الآراء بل العقائد الدينية

قصة الرقم ٤

لو أننا سألنا عن السمة الغالبة للتفكير فى القرون الوسطى لكان الجواب إنها السمة الغيبية

ومعنى ذلك أن المؤلف كان ينظر للأشياء نظراً غيبياً لا يبرره العقل وإنما تبرره العقائد . أى أنه كان يرى أو يشعر بقوة خلف الظواهر الطبيعية . وهذه القوة لاتنزل على أصول العقل . فالنظر الغيبى يقتضى الإيمان بالسحر والشياطين وحساب الجمل والتنجيم ، وهذه كلها نراها واضحة عند جميع المؤلفين الذين كتبوا فى القرون المظلمة

ولكن هذه السمة تستتبع سمات أخرى . منها ، إننا نعدم الثقافة المنظمة، ونجد بدلا منها معارف ليست لها غاية أو هدف . ومنها أن المؤلف ، وإنما هو يبغى خدمة الكنيسة ، يتجه بتأليفه نحو خدمة الشعب . ومنها العناية بالسلف والشعور بأن النقص الذى نراه فى العالم سواء فى الأخلاق أو الحكومة أو غيرها إنما هو فساد حاضر حديث بعد إصلاح سابق . وأن السبيل إلى معالجته تقتصر على الرجوع إلى طريقة السلف دون التفكير فى ابتكار طريقة جديدة للمستقبل

ويجب أن نقول إننا نحن أنفسنا لم نتخلص إلى الآن من هذا النظر الغيبي كل التخلص . والكتب العربية القديمة وبعض الحديثة تنظر هذا النظر فى كثير من النواحى

وإذا نظرنا نظرة عاجلة فى كتاب « حياة الحيوان » للدميرى وجدنا أن هذا الموضوع العلمى ، أى الحيوان ، ينظر إليه المؤلف نظرة غيبية . ونجد فيه هذه السمات :

١ ـ أنه يتكلم أحياناً عن السحر والعفاريت كأنها حقائق ملموسة

٢ ـ أنه ينظر إلى السلف كأنهم المثل الأعلى . ويعتمد فى معارفه على رواية الكتب القديمة

٣ ـ أنه يرى أن الغاية الوحيدة للمعارف هى خدمة الدين ، ولذلك لاينسى عندما يتكلم عن البرغوث أو الصرصور أن يقول هل أكلهما حلال أو حرام

٤ ـ أن المعرفة عنده ليست ثقافة يقصد منها إلى غاية معينة ، وإنما هى حقائق تحتشد فى ذهنه بلا نظام أو قصد . حتى لقد أدمج فى حياة الحيوان تراجم الخلفاء ، وتكلم فيه عن الطب والشريعة والصرف والنحو والفلك

وقد اخترنا « حياة الحيوان » لأن هذا الموضوع « الحيوان » لا يمكن إلا أن يكون موضوعاً علمياً تدون فيه المشاهدات ويقتصر عليها . ولكن كتاب القرون الوسطى لم ينسوا عند ذكر الحيوان قصة الهدهد مع سليمان يضيفونها جنباً إلى جنب مع مشاهدة علمية دقيقة . فهم ينظرون للدنيا نظراً غيبياً ويعتمدون فى كل ما يكتبون على السلف ،

وقد يحق لنا أن نقف هنا فنتساءل : لماذا نظر الناس فى تلك القرون هذه النظرة الغيبية ؟ . ولماذا لم يسيروا على النهج الذى نهجه الإغريق القدماء مثل أفلاطون أو أرسطوطاليس ؟

وهنا يجب أن ننبه إلى أن هذا النظر الغيبى يرجع فى بعض نواحيه إلى الإغريق ، كما يتضح من أفلاطون . ثم أن الانحطاط الذى شمل الدولة الرومانية وما أعقبه من فوضى قدحصرا التعليم بين طبقة صغيرة جداً من الناس.وإذا انحصر التعليم كبر فى ذهن المتعلم شأن السلف.ثم أن مقاومة الدين للثقافة القديمة وإلغاء المدارس الوثنية جعلا التعليم كله دينياً، فأصبح المتعلم ، الذى نشأ على الفصل بين الروح والجسم والإنسان والشيطان ، ينظر هذه النظرة نفسها إلى الأشياء الأخرى ويصر ، بالعقلية التى اكتسبها من التعليم الدينى ، على أن يرى فى الكواكب والأرقام معانى أخر غير ظاهرهما الطبيعى . ثم لما اعتمد المتعلمون الاعتماد الكلى على السلف زالت ثقتهم بأنفسهم فكفوا عن التفكير والابتكار واتجه نظرهم إلى الماضى دون المستقبل

ويمكننا دون أن نخطىء أن نسمى القرون المظلمة ، سواء بين العرب أو الغربيين ، بالقرون الغيبية . وهى سواء عند الاثنين فى السمات. هنالك نجد العلم فى الأديان يحمله الرهبان ، وهنا نجد الغيبيات تغير على الكيمياء والشعر والتاريخ والأدب عامة

وأرجح الظن أن النظر الغيبى لم يبلغ عند العرب مابلغه فى أوربا ، ولذلك يمكننا أن نقول أن الظلام لم يعم العالم العربى بالمقدار الذى عم به العالم الأوربى ، وإن كنا نحن مازلنا نتعثر بهذا النظر الغيبى إلى

وقتنا هذا

وقد ذكرنا كتاب « حياة الحيوان » للدميرى ونحن نذكر إلى جنبه كتاباً آخر لراهب انجليزى يدعى « برتفرت » الذى مات سنة ١٠٠١ للميلاد ، حين انحدر الذهن الأوربى إلى أحط دركاته . والكتاب خليط من المعارف ، يكفى القارىء أن ننقل منه هذه النبذة من كلام المؤلف عن الرقم ٤ حيث يقول :

« أن الرقم ٤ هو رقم كامل ،وهو يتحلى بفضائل أربع هى الاستقامة والاعتدال والجلد والتصبر . ثم هذا الرقم يتتوج بالفصول الأربعة فى السنة . وهذه أسماؤها : الربيع والصيف والخريف والشتاء . ثم هو تزينه أيضاًمذاهب الإنجيليين الأربعة الذين يقال أنهم الحيوانات الأربعة التى ذكرت فى كتاب حزقيال النبى المشهور . ثم هذا العدد هو عدد محترم إذ أنه اسم الله (فى اللاتينية) وهو أيضاً اسم أول إنسان خلقه الله وهو آدم . ثم هو رقم له جاذبية لايمكن أن نمر بها ونحن سكوت ، وأنا أعنى بذلك أن هناك زمنين للاعتدال الشمسى وزمنين للانقلاب الشمسى ، وهناك أربع رياح أصلية هى الرياح الشرقية والغربية والشمالية والجنوبية

« وهناك أيضاً أربعة عناصر : الهواء والنار والماء والتراب . وهناك أربع جهات للدنيا هى الشرق والغرب والشمال والجنوب . وإذا درسنا هذه الأجزاء بعناية وجدناها جميعها فى اسم « آدم » طبقاً للأعداد الإغريقية » اه

وقليل من المؤلفين العرب من انحط إلى هذه الدرجة . بل لا أكاد

أعرف واحداً بلغها . وهو ، أى برتفرت ، فى كل مايقوله يعتمد على أحد الثقات من السلف ، حتى جدول الضرب لا يأتمن فيه نفسه بل يرده إلى أحد السالفين . وعنايته بالألفاظ لا تقل عن عناية الدميرى

على أن هذه القطعة التى نقلناها تدل القارىء على النظر الغيبى ، وهو أنه يرى علاقة واضحة بين الاسم اللاتينى لآدم وبين ظواهر الكون . أى أن الإنسان (كما قال ابن سينا) هو العالم الأصغر للعالم الأكبر . ومن هنا تبرير التنجيم لأننا نحن والنجوم من طبيعة واحدة ، بل من هنا نسبة الصفات الإنسانيـــة للأرقام والأجسام والإيمان بالسحر والأرواح والشياطين

وقد تخلصنا من كثير من هذه الثقافة المظلمة ، ولكن النور الجديد ، نور العلم ، لم يقشعها كلها

فضل العرب فى القرون الوسطى

عندما نقرأ كتب التاريخ الأوربية نجد أخباراً صغيرة تطفو على تيار الحوادث نفطن منها إلى الدخائل المستورة فى الارتقاء الأوربى وتطور الثقافة ، وتلمح فيها عقول العرب وأيديهم

فمن ذلك مثلا أننا نجد أن الأوربيين كانوا يرحلون إلى مدن الأندلس كى يتعلموا فيها كما يرحل أبناؤنا هذه الأيام إلى مدن أوربا لمثل هذه الغاية

ثم هناك أيضاً هذه التهمة التى كان يتهم بها المفكرون مثل «روجر بيكون» . فإن هذا الراهب الذى قال بالتجربة العلمية ودعا إلى الاختراع والإيمان اتهم بالإسلام . لأن المسلمين كانوا فى ذلك الوقت دعاة للعلوم، فكانت كل فكرة جديدة تعزى إليهم ويتهم قائلها بالكفر لهذا السبب. أى أنه لم يكن مسيحياً مخلصاً ، إذ هو قد أخذ بعادات المسلمين فى التفكير ولا بد أنه آمن كذلك بدينهم

حتى أن « جان دارك » التى حاربت الانجليز وطردتهم من فرنسا ، عندما قالت بأنه يجب ألا يكون هناك وسطاء بين الإنسان وربه (مثل الكهنة) اتهمت أيضاً بالاسلام . إذ ليس فى الاسلام كهنة

وكلنا يعرف قصة « روجر الثانى » ملك صقلية الذى استخدم العالم الجغرافى المسلم الأدريسى . فإنه استقدمه من أفريقيا الشمالية وكلفه تأليف كتاب فى الجغرافيا، كما كلفه أيضاً أن يصنع له كرة تمثل الأرض . وقد صنعها له من الفضة . وهذا فى الوقت الذى لم يكن الأوربيون يسلمون فيه بكروية الأرض

وإلى هذا أيضاً يجب أن نذكر عشرات الكتب العربية التى ترجمت إلى اللغة اللاتينية التى كانت لغة الثقافة إلى القرن السادس عشر

وقد كان العرب فيما بين سنة ٧٠٠ وسنة ١٣٠٠ ميلادية أرقى الأمم فى العالم كله بلا استثناء . وعلة ذلك أنهم كانوا يملكون البحار . وكان البحر المتوسط أقرب إلى أن يكون بحيرة عربية من أن يكون مجازاً للملاحة الدولية . ثم كان المسلمون ، من العرب وغير العرب ، يقطنون أقاليم متراحبة من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلنطى غرباً . وهذا التراحب جعلهم يختلطون بالكثير من الأمم ويعرفون الكثير من الصناعات والتجارات

ولنضرب مثالا على ذلك موسى ابن ميمون الفيلسوف المصرى اليهودى أيام صلاح الدين . فإنه كان يقيم فى القاهرة ، وكان له أبناء يتجرون بالجواهر وغيرها فيما بين الهند شرقاً والأندلس غرباً

وأعظم ما يرقى بالثقافة ويزيد المعارف ، ويحرك النقد بالمقارنة ، هو الاختلاط بين الأمم . ولذلك كانت الأمم العربية ، لاتساع رقعة الأقطار التى كانت تسكنها ، ولاختلاطها بالعديد من الأمم ، على اتصال بالثقافات وعلى اختمار وتطور لا ينقطعان

ونستطيع أن نقول إن هذا الاتساع العربى كان أحد الأسباب، بل ربما أعظم الأسباب، للنهضة الأوربية التى انفجرت فى القرن الخامس عشر. ذلك أن العرب نقلوا إلى أوربا أربع وسائل للثقافة هى :

١ - الأرقام الهندية

٢ - صناعة الورق

٣ - الكتب الإغريقية القديمة

٤ - التجربة العلمية

ولنبدأ بالوسيلة الأولى وهى الأرقام . فإنهم فى أوربا يسمونها « العربية » ونحن نسميها الهندية . وهذه الأرقام هى الآن لغة العالم . ومن المحال قطعاً أن يتقدم العلم بلا أرقام ، ونعنى بلا أرقام هندية . وقد كانت الأرقام الشائعة فى أوربا قبل ذلك هى الأرقام اللاتينية التى لا تصلح إلا للعد البسيط ، أما حيث نريد الآلاف والملايين فإنها لا تصلح بتاتاً

وبظهور هذه الأرقام فى مدن أوربا شرع العلم يخطو

ومن عجيب ما نذكره أن الأرقام الأوربية هى أرقامنا الأصلية التى سلمناها إلى أوربا ، ولا يزال المغرب الأقصى يستعملها ، أما أرقامنا الحاضرة فجديدة . ولا تزال كلمة « الصفر » مستعملة بهذا اللفظ فى أوربا للمعنى الذى نقصده منه فى حسابنا . وكذلك كلمة « الجبر » وهو اختراع عربى صرف

وإذا كان فضل الاختراع للهنود فى هذه الأرقام فإن فضل نقلها إلى أوربا وإشاعتها فى أنحاء العالم للعرب . وإذا كانت أوربا تعتز بالعلم ،

وهو قوتها وحضارتها ، فإن هذا العلم ما كان لينشأ أو ينمو بدون الأرقام الهندية

ثم هناك الورق الذى عرف العرب صناعته فى الصين وأقطار المغول والتتار فنقلوا هذه الصناعة إلى أفريقيا ثم إلى الأندلس ، ثم إلى أوربا

وهل يمكن أن تكون هناك ثقافة ، ونعنى ثقافة عصرية تصل إلى أفراد الشعب بالجريدة اليومية مثلا ، بلا ورق؟

هذا غير ممكن

لقد عرفت الأمم القديمة « ورق » البردى المصرى ، ولكنه لم يكن يكفى الحضارة المصرية . ولم يكن ليتسع لضروب الإتقان والدقة فى إبراز الحروف مثل الورق المصنوع ، حتى يجعل القراءة ميسورة واضحة تحب ولا تمج

الأرقام العربية والورق، هما بلا شك أعظم الوسائل للثقافة وللحضارة الأوربيتين أو الغربيتين فى العصر الحاضر . والفضل فى نقلها إلى القارة الأوربية يعود إلى العرب ، والعرب وحدهم

بقى هناك فضل ثالث يقول به الأوربيون ويكبرون من شأنه ، هو أن العرب نقلوا بعض الكتب الأغريقية القديمة ، مثل مؤلفات أرسطوطاليس وأفلاطون وفيثاغورس ونحوهم ، إلى العربية . فنقل الأوربيون هذه المؤلفات من العربية إلى اللاتينية

واعتقادى أن الفضل هنا ليس كبيراً ، وقيمته إنسانية أكثر مما هى ثقافية . أى أنها ربطت أوربا بالإغريق القدماء ، وفتحت لهم آفاق الماضى وجعلتهم على وجدان بأن الثقافة البشرية موصولة وليست

مقطوعة . وبكلمة أخرى نقول إن قيمة الثقافة الإغريقية التى نقلها العرب ، ثم الأوربيون عن العرب هى تاريخية . ودراسة التاريخ هى دراسة إنسانية أكثر مما هى أدبية أو علمية

بل نستطيع أن نقول إن دراسة الإغريق القدماء قد عطلت أحياناً الارتقاء الثقافى . فإن « فكريات » أفلاطون جمدت التفكير البشرى ، بل لا تزال تجمده ، كما أن أرسطوطاليس كان عبئاً على الثقافة الأوربية بضعة قرون لأن كلماته كانت مقدسة ، حتى أن برلمان باريس عين عقوبة لكل من يخالفه أو يعارضه

إن الحضارة الأوربية الحاضرة هى حضارة العلم الذى ينهض على التجربة . وقوة أوربا هى قوة الصناعة التى تنهض على العلم

وفيما بين سنة ١٠٠٠ وسنة ١٣٠٠ لا نكاد نعرف أمة تؤمن بالتجربة وتقبل عليها غير الأمم العربية . فصحيح أن كثيراً من تجاربها كان مخطئاً ، إذ كان القائمون بها ينشدون هدفاً خيالياً هو إحالة المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة ، ولكنهم فى غضون هذه التجارب عثروا على معادن ثمينة فى الكيمياء كان لها بعض الشأن فى الطب وغيره

ولكن ليست العبرة بما عثروا عليه وإنما بالأسلوب الذى اتبعوه ، وهو الوصول إلى المعارف الجديدة بالتجربة اليدوية ، وهذا هو العلم

لأن العلم ليس تفكيراً مجرداً يفكر به العالم وهو على كرسيه أمام منضدته فقط ، فهذا التفكير وإن يكن ضرورياً يحتاج إلى التصحيح والتطبيق بالتجربة فى المعمل ثم المصنع ، وهذا هو الأسلوب الذى

يعزى إلى علماء العرب

والأمة العربية فى عصرنا الحاضر قد تخلفت عن أوربا لأنها أهملت العلم والصناعة، ولن تستطيع أن تستعيد مكانتها فى قافلة الارتقاء البشرى إلا إذا أخذت بالعلم والصناعة .

بذور الحركة البشرية الأولى

كلما ذكر الإنسان القرون الوسطى خطر للذهن تسلط الكنيسة وحجرها على الحرية الذهنية . وليس شك فى هذا التسلط وهذا الحجر

ولكن يجب ألا ننسى أن الانحطاط لايعنى أن هناك أذهاناً متنبهة قد حجرت عليها الكنيسة وصارت تمنعها من التفكير الحر . لأن هذه الحال هى حال اليقظة والتنبه على الرغم من هذا الحجر . وإنما حقيقة الانحطاط فى القرون الوسطى تعنى أن الذهن البشرى نفسه قد انحط ، فصار ينظر إلى الدنيا من زاوية العقيدة والمذهب . وأخذت العقائد مكان الآراء ، والجزم مكان الشك والبحث

فمنذ القرون الأولى للمسيحية أخذ الناس . أو تلك الأقلية التى كانت تقرأ ، يدرسون لغاية واحدة هى خدمة الدين . وعندئذ أصبح الرجل المثقف ، وهو فى الغالب راهب ، يدرس السموات السبع كما ندرس نحن الآن جغرافية أفريقيا . وهو يفعل ذلك ، لا لأن الكنيسة تمنعه من درس الطبيعة أوالعلم ، بل لأن هذا هو مزاجه الذى اكتسبه بعد مئات من السنين عدم فيها الناس كتب الإغريق والرومان

أيام نهضتها وأصبح الكتاب المقدس موضوع درسهم يقرأونه ويغلقون عليه

وهذا هو « العصر الجليدى » الذى أصاب الذهن البشرى فى أوربا . إذ أصبحت الفلسفة غيبيات غايتها إثبات حقائق الدين ورواية الرسل . وزال الروح العلمى تمام الزوال . فإن هذا الروح كان قد ابتدأ بداية ضعيفة جداً فى الاسكندرية ، ولكنه ما كاد ينهض حتى مات عقب زوال البطالمة . وبقيت الحال على ذلك إلى أن عاد يتعثر على أيدى العرب فى الأندلس

والمشهور عن القرون الوسطى أن النقل فيها أخذ مكان العقل . ولكن هذا القول ليس صادقاً بأكمله . فإنه إذا كان من المسلم به أن العلماء الرهبان كانوا يعتمدون كثيراً على الرواية وما يشبه العنعنة ، فإنهم كانوا يعتمدون فى أواخر القرون الوسطى على العقل . وذلك أنهم كانوا يفكرون ، ولكن تفكيرهم لا يخرج عن حدود الدين ، ولذلك جعلوا الفلسفة الأوربية لاهوتاً . ولذلك أيضاً نجد فى النهضة الأوربية ثلاث نزعات ذهنية مختلفة تناقض نزعات القرون الوسطى

١ ـ النزعة الأولى هى الرجوع إلى القدماء فى الفنون ، وتكاد هذه الحركة تكون نزعة وثنية . فإننا نرى الرسام أو المثال مع رغبته فى خدمة الدين ، لا يتقهقر أمام موضوع وثنى . فإنه يرسم أو ينحت الآلهة كما يرسم أو ينحت الملائكة أو العذراء ، لا يشعر وهو يفعل ذلك أنه قد تلبس بالكفر والإثم كما كان يشعر أسلافه بين القرنين الثالث والعاشر

٢ ـ النزعة الثانية هى درس الكتب التى لا تتصل بالدين . كأن

الإنسان قد شعر فى النهضة أن آفاق الذهن تتسع لغير الدين وأنه يجب عليه أن يحقق السعادة فى هذه الدنيا . وهذه الحركة تسمى « الحركة البشرية » لأن الناهضين اعتمدوا فيها على درس المؤلفات البشرية زيادة على درس المؤلفات الدينية

٣ ـ أما النزعة الثالثة فهى الحركة العلمية . وهذه لقيت بذرتها الأولى فى الأندلس عند العرب . وتكاد تكون اكتشافاً جديداً للدنيا لأنها اعتمدت على التجربة

والقرون الوسطى لم تنته بتاريخ معين . فإن سنة ١٤٥٣ هى حد عرفى لنهايتها . ولكنها كانت فى الحقيقة تنزاح عن الأذهان كما ينزاح الليل رويداً رويداً . ولذلك نجد بعد القرن الحادى عشر اضطرابات ذهنية ، كأنها ارتكاض الجنين فى الرحم ، تنذر بالميلاد القادم . ونحن نذكر هنا رجلين عاش كلاهما فى القرون الوسطى ونزع كلاهما نحو النهضة

وأولها هو أبيلار (١٠٧٩ — ١١٤٢) فإنه كان رجل دين قبل كل شىء ، ولكنه دعا إلى الشك وجعل منه أساساً للإيمان الصحيح . وعنده أننا إذا اصطدمنا بشىء لايتفق مع العقل وجب علينا أن نعود للضمير . وهو يعتقد أنه ليس شىء فى الدين لايتفق والعقل ، ولكن إذا استبهم علينا شىء من ذلك فإن علينا أن نلجأ إلى ضميرنا . ومع أنه قال ذلك فى حذر ، بل فى اعتذار ، فإن مؤلفاته حرمت بأمر من البابا

وأما الثانى فهو توماس الاكوينى (١٢٢٥ — ١٢٧٤) فإنه ألف فى التوفيق بين العقل والدين . وهذا التوفيق هو فى النظر الحديث تلفيق

ولكنه مع ذلك محاولة من المحاولات الأولى للخروج من قيود الجزم إلى ميدان الرجم أو الخروج من النقل إلى العقل . فهو مثلا يعصر ذهنه كي يصل إلى استنتاجات منطقية تثبت وجود الله ، ثم يبرر وجود الدين بأثره فى الأخلاق ، بما فيه من زواجر تزجر عن الشر والعدوان

فنى كلا الرجلين نرى جراءة على التفكير . ولكننا نرى ما هو أحسن من الجراءة فى ذلك الزمن ، وهو الرغبة فى درس الكتب الأخرى التى لاتمت إلى الدين . فكلاهما يدعو إلى الثقافة البشرية وإلى درس الكتب الوثنية القديمة . وهنا إذن نرى بذرة هذه الحركة البشرية التى ترى على أقواها فى النهضة . وخلاصتها أن الثقافة يجب ألا تقتصر على درس الدين بل يجب أن تتجاوز ذلك إلى ما ألفه الناس أيضاً ،وأن الإنسان يجب عليه أن ينشد السعادة الدنيوية بدرس الثقافة البشرية ، كما عليه أن ينشد السعادة الأخروية بدرس الثقافة الإلهية

وكما كانت « الغيبيات » مزاج المثقفين فى القرون الوسطى أصبحت « البشرية » مزاج المثقفين فى أيام النهضة . ومن هنا هذه الحركة ، بل هذه الحمى ، التى أصابت العقول فى أيام النهضة . فإن المدارس والمجامع والأفراد نهضوا فجأة يبحثون عن الكتب القديمة بين مخلفات الإغريق والرومان ، يدأبون فى درسها ومناقشة آرائها ولا يبالون بما فيها من كفر أو وثنية

* * *

ونحن إلى الآن ما زلنا نعيش فى سياق النهضة التى انفجرت فى النصف

الثانى من القرن الخامس عشر فى أوربا ، وبقيت فى انفجارها هذا إلى نهاية القرن السادس عشر حين اتزنت وسارت سيراً وئيداً مطمئناً ، إلى أن عادت فانفجرت مرة أخرى فى فرنسا فى آخر القرن الثامن عشر

وفى اسكوتلندا وغيرها من الأقطار الأوربية لاتزال تسمى دراسة الكتب الإغريقية واللاتينية « البشريات » . ومن هذه التسمية التى ترجع إلى ماقبل أربعة قرون يدرك القارىء هذا الفرق الذى ميزته أذهان الناهضين فى القرن السادس عشر . فإنهم شعروا أن أسلافهم كانوا يدرسون الموضوعات التى تتعلق بالدين ، وهى التى كانت تسكن الديور فى صوامع الرهبان ، أى « الإلهيات » من الفلسفة واللاهوت والصوفية وتفسير الكتب المقدسة والتعليق على شرح القدماء فيما يتعلق بالدين . ولكن الناهضين انحرفوا عن هذه الثقافة ، أو كفروا بها ، وعمدوا إلى الوثنيين من الإغريق واللاتين يدرسونهم . فكانت دراستهم لهذا السبب « بشرية » وليست « إلهية »

وهـــذه الجراءة على الدراسة البشرية كانت أشبه الأشياء بالدعوة إلى تقرير المصير للذهن البشرى ، أى أن للإنسان الحق فى أن يقرأ ما يشاء ولو كان المؤلف من كفار الإغريق أو الرومان القدماء . بل له أيضاً أن ينتقدها . فسقطت بهذا الحق الجديد مكانة « أرسطاطاليس » وصار لأمثال « جاليل » أن ينقده وأن يجرب التجارب لكى يثبت خطأه . وأصبحت « التجربة » طريقة جديدة للاقتراب من الحقائق وبحثها

وأول ثمرات الحركة البشرية الأولى هو « لوثر » المصلح الألمانى .

وهو نفسه كان بذرة لنهضة أخرى هى الحرية الدينية . فإنه ورث من النهضة حرية الذهن فأورث الناس حرية أخرى هى حرية الضمير . وقد كان هذا الرجل راهباً زار روما سنة ١٥١١ فرأى من نظام البابوية وأخلاق البابوات ما أسخطه ، ولكنه صمت وعاد إلى وطنه . فلما كانت سنة ١٥١٧ بعث البابا برهبانه لكى يجمعوا من المؤمنين ثمن الغفرانات ، وكان على الراهب أن يعرض الغفران من العقاب فى الآخرة فيشتريه الموسر ويناله الفقير بالمجان، ولكن لوثر لم يطق هذه النخاسة الدينية فعمد إلى لوحة كبيرة وكتب عليها ٥٥ اعتراضاً على بيع الغفرانات وعلقها على باب الكنيسة

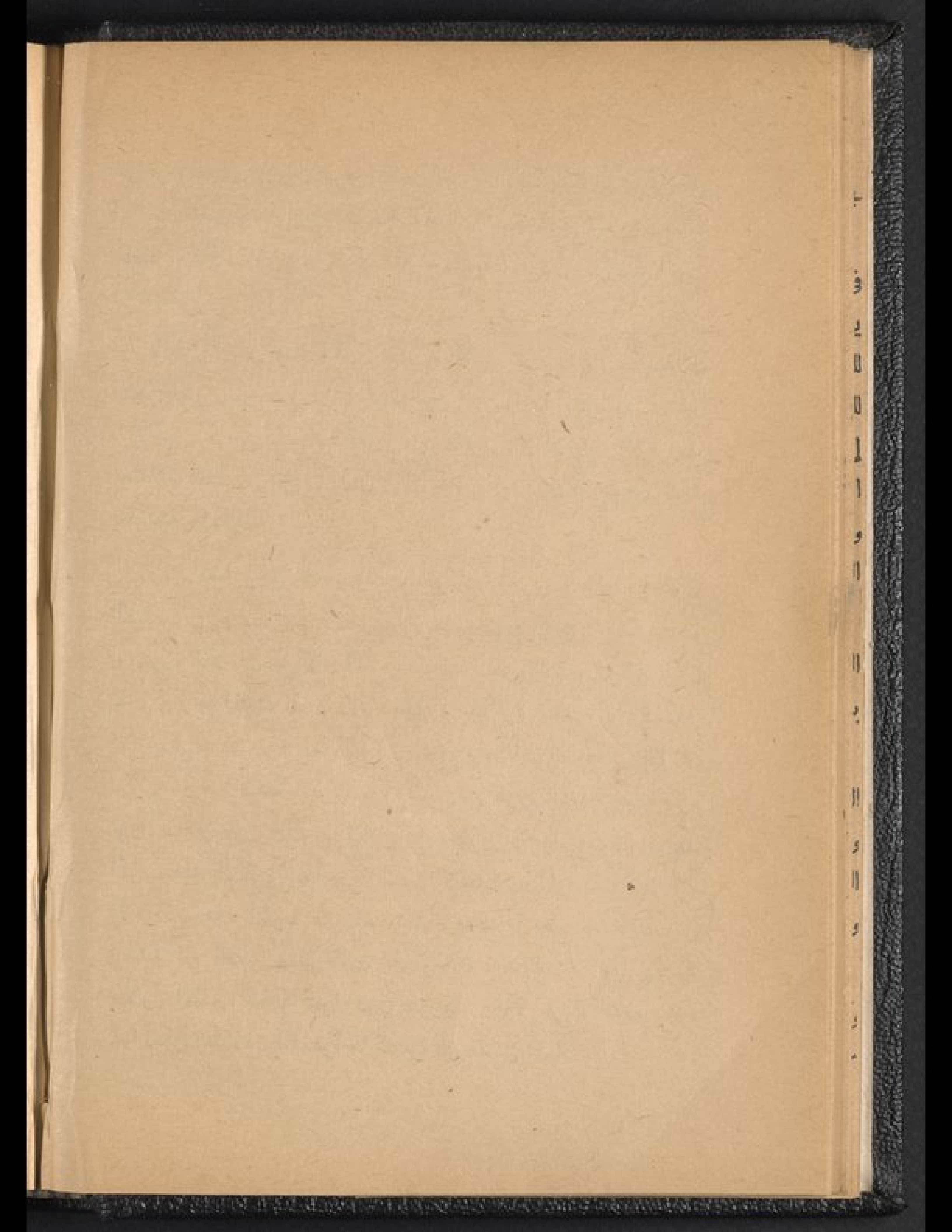
وعلم البابا بهذه الفعلة فاستدعاه لسؤاله أو محاكمته . ولكن لوثر أيقن أنه إذا سافر إلى روما فإنه لن يبرحها حياً . ولذلك بقى فى مكانه يدعو إلى مذهبه فيجد المؤيدين كما يجد المعترضين . وعقدت له هيئة حاكمته وحكمت بحرمانه ، ودعت الجمهور إلى مقاطعته وألا يؤاكله أو يعامله أحد . وأرسل إليه البابا «حرماناً» يجعله مطروداً من بركة الكنيسة ونعيم الآخرة ، فأخذ لوثر ورقة الحرمان وأحرقها علناً بين الجمهور المعجب بجراءته . ولم يقف عند هذا الموقف السلبى . بل خالف الرهبانية وتزوج ، ثم خالف قواعد الكنيسة وترجم الكتاب المقدس إلى الألمانية . ومات سنة ١٥٤٦ بعد أن ملأ أوربا بالخلاف الدينى وهيأها لحروب مذهبيـــة دمرت مدنها وخربت ريفها ولكنها أحيت نفوسها

وأحيت نفوسها لأنها قررت مبدأ آخر إلى جنب حرية الذهن ،

هو حرية الضمير ، و « تقرير المصير للنفس الإنسانية » وأن خلاص الإنسان ليس قضية يحكم عليه فيها الكهنة والكنيسة وإنما هو مسألة خاصة بين الإنسان وربه ، ولا شأن لحكومة أوفرد أو أى هيئة أخرى أن تتدخل فيها

فانظر إذن فى هذه الحركة البشرية الأولى . فإنها قررت استقلال الذهن البشرى وحقه فى أن يقرأ المؤلفين الذين ألفوا أو يؤلفون فى غير « الإلهيات » حتى ولو كانوا كفاراً من الاغريق أو اللاتين . ثم قررت استقلال الضمير وحق الإنسان فى أن يناجى ربه دون أن يتوسل لذلك بالكهنة والكنيسة

ومن هذا الحق الثانى نشأت حركات أخرى اتصلت بالحقوق السياسية والاقتصادية. بل لقد رأى لوثر نفسه أن حركة حرية الضمير أدت إلى ثورة الفلاحين على الأمراء . وأصبحت « حرية الضمير » كلمة مفيدة تقال فى وجه الملوك لمنـــع الاضطهاد ، وفكرة تبعث على التفكير الاجتماعى ، بلا خوف من العرف الشائع والعادات الفاشية . وإذا كان لوثر نفسه قد احتفظ بعفونات ورواسب من القرون المظلمة جعلته يكره ثورات الفلاحين وحملته على الدفاع عن حقوق الأمراء والنبلاء ، فقد أثمرت هذه الفكرة أيضاً حرية السعى الاقتصادى والمزاحمة الحرة بين الأفراد ، هذه الحرية التى بلغت قمتها فى عصرنا حتى استحالت من الفائدة إلى الضرر وحتى قامت الحكومات الحديثة تحد منها وتأخذ بالآراء الاشتراكية كى تحول دون ضررها . ولولا حرية الضمير هذه لمـا أمكن العلماء أن يكتشفوا ما كشفوا من حقائق علمية



التفسير الاقتصادى للنهضة الأوربية

كان التاريخ يكتب كى يكون معرضاً ، تسير فيه مواكب العظماء من الملوك والقواد والساسة والعلماء أو الأدباء ، تروى فيه سيرهم وما اشتبكوا فيه من المعارك الحربية أو المناضلات الدينية . فلما ظهرت نظرية « التفسير الاقتصادى للتاريخ » أصبح المؤرخون يبحثون العوامل والعلل الإقتصادية لإحدى الثورات أو الحروب كما يبحثون عنها لتعليل أحد المستكشفات أو المخترعات

وهذه النظرية تقول بأن العلاقات الإقتصادية بين طبقات الشعب وأفراده هى الأساس الذى ينبنى عليه سائر ما فى الأمة من علاقات اجتماعية أو حقوق سياسية . وأن ما يصدر عن الأمة من فلسفات أو مذاهب أو نزعات أدبية إنما يعبر فى الحقيقة عن الحالة الإقتصادية التى فى الأمة . وذلك لأن المركز الاقتصادى للفرد يقرر له المركز الاجتماعى ، وأولئك الحاصلون على السيادة الاقتصادية هم أيضاً الحاصلون على السيادة الإجتماعية أو السياسية . وما عند الأمة من نظم اجتماعية أو سياسية أو ثقافية إنما هو فى الحقيقة ثمرة النظام الإقتصادى الأساسى.

لأن غاية هذه النظم فى النهاية صيانة الحقوق أو الامتيازات الاقتصادية

والقائلون بهذه النظرية لا ينكرون اعتبارات أخرى فى تطور الأمة ولكنهم يضعون هذا الاعتبار الاقتصادى فى المقال الأول . وقد يجد المتأمل خروقاً فى هذه النظرية تجعلها لا تستوعب جميع التغييرات الاجتماعية أو السياسية أو الثقافية، ولكنه لا يتمالك من الاعتراف بأنها على وجه العموم صحيحة . وليس المعنى المقصود من التفسير الاقتصادى للتاريخ أن الناس لا ينبعثون إلى العمل والنشاط والسعى إلا للفائدة الاقتصادية التى تعود عليهم وإنما المقصود أن الحالة الاقتصادية العامة فى الأمة تقرر سائر الأحوال فيها . إذ هى بمثابة الشجرة وهذه بمثابة الثمرات التى تنبت عليها . ووسائل الإنتاج وطرق الإرتزاق تعين الطبقات وتبعث العواطف

وفى ضوء هذه النظرية نستطيع أن نقول أن القرون المظلمة التى أعقبت سقوط الدولة الرومانية فى أوربا إنما كانت نتيجة لغارة الهمج من القبائل الجرمانية على المدن الرومانية وتخريبها . وهؤلاء الهمج لم يخرجوا من أقاليمهم إلا لأسباب اقتصادية.فلما خربت المدن الرومانية عاد الوسط الأوربى وسطاً ريفياً قروياً بعد أن كان وسطاً عالمياً مدنياً . والوسط الريفى يلازمه الانحصار والجمود والتأخر وقلة الثقافة والاستبداد، فى حين يلازم المدينة رقى فى الصناعات وتوسع فى التجارة وثقافة تتعلق بالتجارة والصناعة . ولذلك تفشو الآراء والانتقادات فى المدينة كما يفشو التسليم والعقائد فى الريف

ثم جاء العرب فى القرن السابع فنعوا أوربا من الاتجار مع آسيا

فلم تعد الآفاق الفكرية تنبسط للأوربى لأن وجــدانه الكوكبى زال وأخذ مكانه وجدان قروى محدود يعيش فى السكان بالمقايضة

والقرون المظلمة ، سواء فى الشرق أم فى الغرب ، بل سواء فى الزمن الحاضر أم الأزمنة الماضية، هى قرون الوسط الريفى كما نفهمه فى مصر. أى هذا الوسط القائم على الزراعة اليدوية . ولسنا نعنى ذلك الوسط الريفى الجديد فى الولايات المتحدة مثلا حيث العمل يجرى بالآلات الضخمة ، فإن عقلية المزارع هنا لا تختلف عن عقلية الصانع

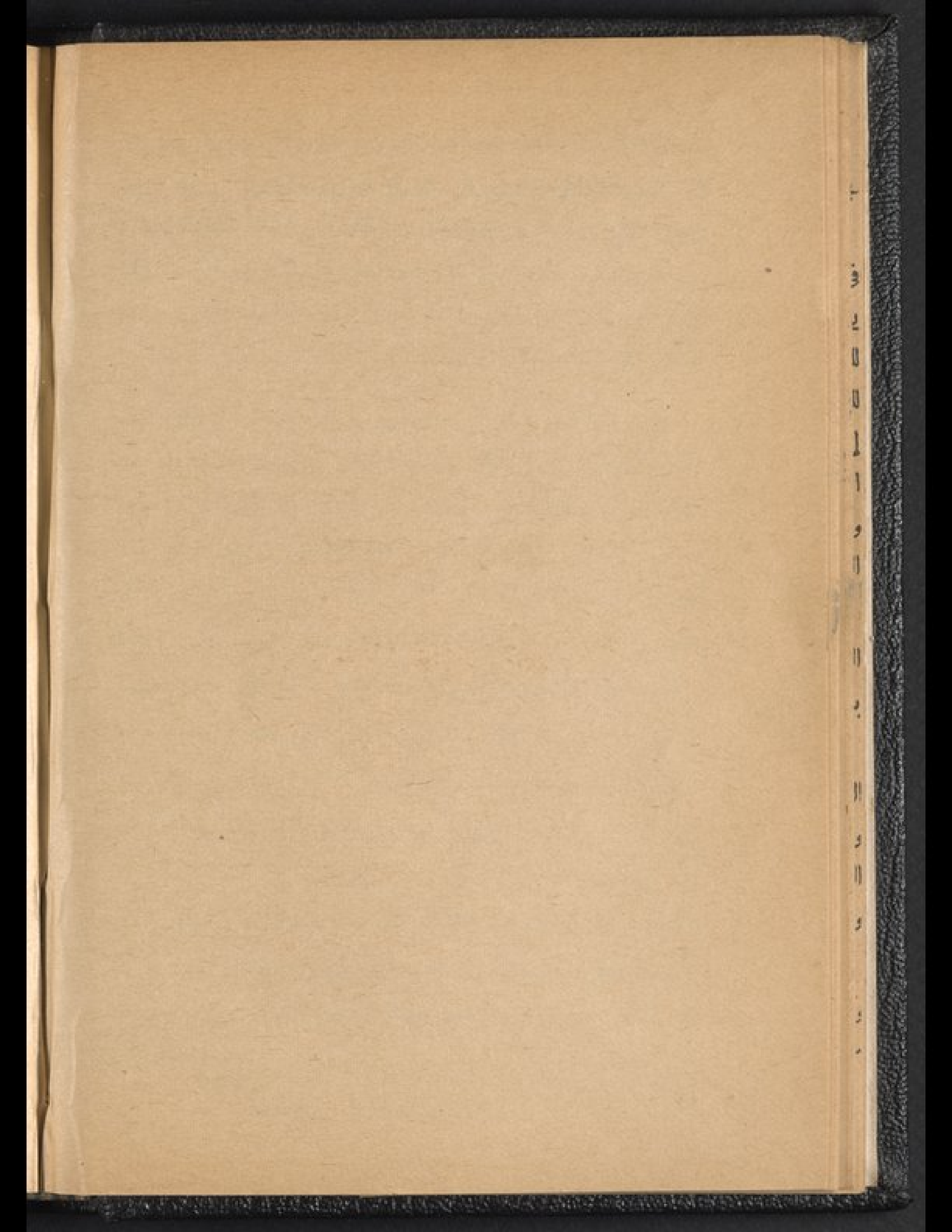
فلما بلغت أوربا سنة ألف أو حواليها بدأت المدن تتكون وتجذب إليها عمال الريف أو عبيد الريف . فعاد التاجر والصانع إلى الظهور وأخذت فنون المدينة تظهر رويداً رويداً بعد أن كانت قد ماتت نحو ٧٠٠ سنة فى الريف . فإذا كان القرن الخامس عشر فإننا نجد المدينة عامرة بالصناعات ، وفى كثير منها كليات ومدارس ، ونرى للتاجر مقاماً كبيراً . ونرى للمدينة أثراً فى تركيز الحكم .فإن الريف من طبيعته ـ وخاصة إذا كان جبلياً ـ أن يوزع الحكم ويعمل للإستقلال الإقطاعى فيعود صاحب الأرض وهو « كونت » أو « دوق » له حكومته المستقلة التى يمكنه أن ينازع بها الملك نفسه . أما المدينة فإنها تحصر السكان فى بقعة معينة فلا يمكن الأمراء أن يستقلوا بجزء منها

وحاجات الوسط الزراعى قليلة لأن كل زارع يمكنه أن يستغنى بقليل جداً من الصناعات البدائية عن شراء الملابس والأحذية والأطعمة، لأنه يمكنه أن يستخرج كل هذه الأشياء من أرضه . وقد كانت هـذه حاله مدة القرون المظلمة ، بل الوسطى ، لأن الغزل والنسيج كانا عامين

فى جميع القرى . أما فى المدينة فإن التخصص ضرورى . ومن هنا تنشأ الصناعات على الإختراع والاكتشاف والثقافة الفنية . ومتى كبرت المدينة عظم شأن التجارة فيها ، وعندئذ تعرف البحار ويخرج تجارها لمبادلة السلع مع الأقطار الأخرى فينشأ من ذلك الاكتشاف الجغرافى ثم الحروب ثم الاستعمار . ثم تتجمع الثروات فينشأ الترف ويبعثه الفنون الجميلة والصناعات الأنيقة

وعلى ذلك إذا أردنا أن نعين الفرق بين القرون الوسطى وبين النهضة أمكننا أن نقول أن النهضة هى انتقال الناس من سكنى الريف ، حيث كان الجمود وحكم النبلاء ، والصبر على القائد ، إلى سكنى المدن حيث التجارة والصناعة وتجمع السكان فى بقعة واحدة . وحيث الرأى فوق العقيدة ، بل حيث الفرصة للإكتشاف والاختراع . وهذه الحركة التى فشت فى مدن أوربا فى القرن الخامس عشر ، فى الدرس العلمى الجديد والتنقيب عن المؤلفات الإغريقية واللاتينية ، إنما كان مبعثها ظهور التاجر والصانع فى المدن بعد غيابهما نحو ألف سنة وامتداد أوربا بالملاحة إلى القارات الثلاث ثم الأربع الأخرى فأصبح للأوربيين وجدان بالتاريخ فى الجغرافيا وأصبحوا يعيشون على كوكب الأرض بعد أن كانوا ينحجزون فى القرى ، ولا يعرفون غير التفكير القروى المحدود . بل يمكن أن نفسر الجمود الذى يغشى الشرقيين أو بعضهم الآن بأنهم لا يزالون يعيشون فى وسط زراعى قروى يشجع الإنسان على أن يكون أبله ، يحترم جميع التقاليد ويسلم بجميع العقائد ويقنع بعيشه .

كما يمكن ن نفسر رقى الغربيين بأن معظمهم يعيشون فى المدن التى يجبرهم بجرد السير فى شوارعها على أن يكونوا أذكياء متنبهين . وهم فى هذا الوسط المدنى يرتأون الرأى وينقضونه ويرون فى التقاليد شبهات وفى الجمود كارثة



رجل العلم ورجل الأدب

لا يزال العالم الأوربى من حيث الثقافة يندفع فى تيار النهضة التى اضطرمت فى القرن الخامس عشر حتى مانكاد نجد الآن حركة ثقافية إلا ولها بذرة أصيلة فى تلك النهضة . ومازلنا نجد عادات وتقاليد ونزعات ثقافية ترجع إليها وليس لها من أسباب البقاء غير أنها تتصل بالنهضة . حتى إنى لأجد أديباً عصرياً مثل « ه . ج . ولز » الذى مات فى ١٩٤٧ ، يؤلف آخر مايؤلف من الكتب كتاباً ضد البابا والديانة المسيحية . كأنه لايزال يحس بأنه فى الصراع القائم فى القرن الخامس عشر بين الغبيين والناهضين

وقد كان فى النهضة الأوربية موجتان تعلوان تيارها : إحداهما تنحو نحو التاريخ والنقد الدينى وفنون الإغريق والرومان — نعنى بها موجة الآداب التى كان يمثلها « ارازموس » الهولندى (١٤٦٦ - ١٥٣٦)

والموجة الثانية كانت تنحو نحو العلم وكان قوامها التجربة وكراهة التقاليد ، أو قلة الإيمان بفائدتها ، ثم الجراءة على الابتكار وبحث النظريات العلمية و « الحقائق » الموروثة بروح الشك والرغبة فى الإصلاح

والاهتداء إلى سبل جديدة للوصول إلى استخدام الطبيعة . وكان يمثل هذه الموجة « دافنتشى » الإيطالى (١٤٥٢ - ١٥١٩) . وكان ﻫ . ج . ولز فى سياق هذه النهضة

ومازلنا إلى الآن نجد هذين الطرازين من رجال الثقافة . وقد تشتد أحياناً بينهما الكراهة فيتبادلان السباب . وكل منهما يتهم الآخر بأنه لافائدة منه للعالم . وقل أن تجد من يجمع بين النزعتين ، أى الأدب والعلم . وليس ذلك فقط لأن المجهود يتجاوز قدرة الفرد ، بل أيضاً لأن المزاج العلمى يختلف ، بل أحياناً يناقض ، المزاج الأدبى . فإن الأديب لتعلقه بالتاريخ والتقاليد والمأثور من الشعر والنثر واحترامه للكتب ، يحب الماضى ويفكر فيه كثيراً ويميل إلى الاجترار الذهنى والبحث عن الحقائق الذاتية . أما العالم فإنه يتشكك فى النظريات والفروض القديمة ولا يبالى التاريخ أو الكتب . وعنده أن كثيراً من جد الأدباء إنما هو لهو وسمر ، ثم هو لايبحث عن كنه الحقائق وإنما ينشد فوائدها كى يستخدمها لمصالح الناس

ولو أن مؤرخاً شاء أن يشرح النهضة الأوربية واقتصر على ترجمتى ارازموس ودافنتشى لكان له منهما ما يكفى لإيضاح النزعتين الكبيرتين اللتين غمرتا النهضة ولإخراج تاريخ مفيد عنها والتمييز بين النزعات المتناقضة أو المتساوقة

فقد كان ارازموس يمت إلى القرون الوسطى ، كما يمت جميع الأدباء الآن سواء فى الشرق أم فى الغرب . إذ تعلم فى دير ونشأ راهباً ثم صار بعد ذلك قسيساً . ويعرف القارىء أن الثقافة كانت طوال القرون

الوسطى مقصورة على الأديرة ورجال الدين ، أى أنها رجعت إلى ماكانت عليه فى الأمم القديمة مثل المصريين والبابليين القدماء . ولم يكن رجال النهضة قد تخلصوا من هذه العادات . وتعين ارازموس سكرتيراً لأحد الأساقفة ثم اشتغل بعد ذلك بتحرير الكتب القديمة اللاتينية والاغريقية تجهيزاً للطبع . وكان يعلق عليها بالشروح

ومن الأقوال المألوفة أن ارازموس حضن البيضة التى فقسها «لوثر» المصلح الألمانى وزعيم البروتستنتية . وذلك بما كان يؤلفه عن الفضائح فى الديورة ، وعن جهل القسوس وتعصبهم ، وعن سخافات الرهبان ونحو ذلك . حتى إذا جاء لوثر وجد الحنق عاماً فى قلوب الجماهير فاستطاع أن يعمم بينهم دعوته على البابا والكهان . وكل من ارازموس ولوثر هو فى حقيقته داعية إلى الديمقراطية الدينية

فالعالم الذى عاش فيه ارازموس هو عالم الكتب القديمة ، والموضوع الذى اختاره للتأليف هو الإصلاح الدينى وتقويم الأخلاق فى أسلوب يلهى ويسلى . ولا يزال لأرازموس سلالة تنتمى إليه بصلة الثقافة وتعيش على طريقته وتهتم لهمومه

أما الطراز الثانى فهو طراز دافنتشى الذى لم يؤلف كتاباً ، ولعله أيضاً لم يقرأ كتاباً قديماً ، ولكنه كان موسوعى الثقافة فيما عدا ذلك ، يرسم وينحت ويبحث الرياضيات ويخترع . فقد اخترع طواحين تدور رحاها بتيار الماء ، واخترع دبابات حربية ومدافع ، وبحث عن البارود وكيف يؤلف ، وحاول أن يستعمل قوة البخار للسفن ، وفكر فى خرق نفق تحت الجبال . وأوشك أن يهتدى إلى نظام الدورة الدموية فى الإنسان .

واخترع طيارة وجربها بالفعل ثم كف عن هذه المحاولة الخطرة بعد أن أصيب منها أحد تلاميذه . واستطاع أن يقسم المملكة الحيوانيـــة إلى فقاريات وغير فقاريات ، وبحث واهتدى قبل «كوبرنيكوس» إلى حركة الأرض

هذان هما طرازان بارزان لرجال النهضة : أحدهما رجل الأدب والكتب والتاريخ والسمر والقصص والوعظ والنظر إلى الماضى ، والآخر رجل العلم الذى لايقرأ إلا قليلا ولاينظر إلا إلى المستقبل وهو دائب فى الاختراع . والعالم بالطبع فى حاجة إلى الاثنين وإن كان أبناء المستقبل سيبالون رجل العلم أكثر جداً مما يبالون رجل الآداب

من موضوعية بيكون إلى مادية هوبز

إذا ذكرت النهضة الأوربية مثل للذهن رجلان ، كلاهما يعرف باسم بيكون وكلاهما انجليزى : الأول هو « روجر بيكون » الذى ولد فى ١٢١٤ وهلك فى ١٢٩٤ . والثانى هو « فرانسس بيكون » الذى ولد فى ١٥٦١ وهلك فى ١٦٢٦ . ومع الزمن الطويل الذى يفصل بين الاثنين نجد تشابهاً فى النزعة أو اشتراكاً فى الطريقة يوهمنا الاتصال الذهنى بينهما . وقد كان هذا الاتصال توهماً فقط لا يزيد عن الرجم والظن . ولكن اتضح من الأبحاث التاريخية الحديثة أن بيكون الثانى قد عرف سميه الأول وقرأ مؤلفاته على أستاذه « جلبرت » . وأولئك الذين يؤمنون بتسلسل الثقافة يجدون فى هذا الاتصال دليلا جديداً يؤيد نظريتهم فى هذا التسلسل ، فإنه قلما يحدث أن يشترك اثنان فى اكتشاف أو اختراع . فإذا وجدنا مثل هذا الاشتراك وجب علينا أن ننظر إليه نظرة الريبة والشبهة

ونحن عندما نتكلم عن النهضة الأوربية نقصد إلى تلك الثورة التى أصابت الذهن الأوربى فوقف فجأة عن متابعة السير فى ثقافته

وأخذ يتساءل هذا السؤال المؤلم : هل الطريقة التى أتبعها فى الدرس حسنة أم سيئة ؟

هذا هو الموضوع الذى شغل أذهان رجال النهضة من الأدباء والعلماء . فإن الشك فشى على أذهانهم فشرعوا ينتقصون من قيمة ما يدرسونه من المعارف ويصرحون لأنفسهم بأن طريقة جمع المعارف التى ألفوها منذ الصغر هى طريقة مخطئة وأنه يجب ابتكار طريقة جديدة

وقبل أن نبسط الكلام فى الطريقة الجديدة ، التى هى أساس النهضة، بل أساس الثقافة الحديثة ، يجب أن نشرح فى كلمة مختصرة تلك الطريقة القديمة التى ثار عليها رجال النهضة

فقد كانت غاية العلوم والمعارف خدمة الدين، والدين فقط . وما عدا ذلك فهو عبث أو كفر . وإذن اتجهت النهضة فى ناحية من نواحيها إلى الاستقلال من الدين ، حتى علم السياسة ظهرت له من يدافع عنه فى شخص « ميكافلى » الذى كان يطالب لهذا العلم استقلالا كى يبحث فى نزاهة فلا يخضع الباحث فيه للدين أو الأخلاق . وإذن يمكن أن نقول إن أول واجب قام به الأدباء والعلماء فى بداية النهضة كان الاستقلال من سلطان الدين

وناحية أخرى اتجهت إليها النهضة هى الإقلاع عن الرجم الفلسفى والمنطق الذهنى إلى التجربة . فقد كان المألوف عند العالم من علماء القرون الوسطى أن يبحث الموضوع الذى يتناول درسه بحثاً فلسفياً وكأنه يضارب بذهنه مضاربة . فهو يرجم بالفلسفة ويحاول أن يصل النتائج

بالأسباب . ولكن رجال النهضة رأوا خطأ هذه الطريقة فقاموا يدعون إلى التجربة . فيجب ألا نؤمن بشيء حتى نجربه فى ظروف مختلفة وعلى أيدى أناس كثيرين . ومن هنا يمكن أن نقول أن النهضة كانت إلى حد ما ، وفى تعبيرها الحديث ، ثورة العلم على الفلسفة . أو ثورة التجربة على التفكير المنطقى الفلسفى

ثم نجد إلى هاتين النزعتين حركة جديدة اكتسبها الأوربيون من عرب الأندلس هى الرغبة فى تحويل المعادن والبحث عن اكسير الحياة . فقد اشتغل العرب بنوع غريب من المعارف مزجوا فيه الغيبيات بالكيمياء ، فصاروا يتكلمون عن الحياة الأبدية فى الوقت الذى يتكلمون فيه عن تحويل الرصاص إلى ذهب . والكيمياء الآن أبعد العلوم من الغيبيات ، ولكن بذرتها الأصلية نبتت فى تلك التربة الأندلسية العربية . وقد نستطيع أن نرجع بهذه البذرة إلى المصريين القدماء الذين أكبروا من شأن الذهب ونسبوا إليه صفات الخلود . وكلمة كيمياء معناها مصر أو العلم المصرى . وهو التحويل للمعادن الذى أفشى روح التجربة بين العلماء

وبعد هذه المقدمة المختصرة يجب أن ننظر الآن فى حياة هذين العالمين الانجليزيين فقد كان روجر بيكون راهباً انجليزياً ، مثل معظم العلماء فى وقته ، إذ كان الدير موئل الثقافة . ومما يدل القارى على روح العصر أن بيكون هذا كان يبرر درس الرياضيات بأنها تساعد على فهم الدين . وهو من هذه الناحية يعد من رجال القرون الوسطى وليس من رجال النهضة ، إذ كان يظن أن الغاية من المعارف الإنسانية هى خدمة الدين .

وليس هذا غريباً منه . فقد مات فى ١٢٩٤ والتاريخ الرسمى لبداية النهضة هو سنة ١٤٥٣

أما الناحية التى خدم بها النهضة فتنحصر فى دعوته إلى جمع المعارف بملاحظة الطبيعة دون جمعها من الكتب . ثم كان ينتقص الذهن فيقول أننا إذا فكرنا فى موضوع فيجب ألا نأتمن ذهننا ، ولا نثق بالنتيجة التى وصلنا إليها إلا بعد أن نمتحن هذه النتيجة بالتجربة ، لنرى هل هناك افتراق بين قياس الذهن وقياس اليد ، أو التفكير المجرد والتجربة العلمية

ثم كان يدعو الأوربيين إلى درس اللغة العربية . وقد كان علماء العرب فى ذلك الوقت قد اتجهوا ، كما قلنا، نحو التجربة ، عندما تكلموا عن الكيمياء التى مزجوها بالغيبيات . وقد اتهم بالهرطقة لهذه الدعوة كما كان يتهم المجددون فى مصر بالكفر عندما كانوا يدعون إلى الطريقة الأوربية فى التثقيف

وقد حبس روجر بيكون ١٤ سنة وجمد البابا مؤلفاته . وفى هذه المؤلفات نرى كلاماً غريباً من هذا الخارج من ظلمات القرون الوسطى عن سفن تجرى فى الماء بقوة البخار ، وعن آلات تكبر وتصغر مثل التلسكوب والمكروسكوب ، وعن أشياء أخرى اتهم من أجلها بالسحر

ويجب أن نذكر أن « كولمبوس » الذى اكتشف أمريكا سنة ١٤٩٢ قد قرأ جملة مؤلفات كانت هى التى أوحت إليه هذا الاكتشاف . ووجد فيما قرأه كولمبوس مقتبسات من هذا المفكر الانجليزى الذى أومأ إلى النهضة وان لم يبلغها ، وهذه الكلمات التالية

التى نقتبسها من أقواله تدل على الروح الجديد الذى حاول أن يخلقه فى أوربا حوالى منتصف القرن الثالث عشر :

« أنى أعتقد أن البشر سوف يعتنقون المبدأ الذى أرصدت له حياتى ، مبدأ البحث كما لو كان ، أى البحث من البدهيات. لأن البحث هو مذهب الأحرار . إذ ينطوى على إتاحة الفرصة للتجربة وعلى حقنا فى أن نخطىء وننشجع ونعود إلى التجربة. ونحن العلميين فى الروح البشرى سنجرب ونجرب ودائماً نجرب . وعلينا فى القرون القادمة مع المحاولات والأخطاء ، ومع آلام البحث ومتاعبه أن نجرب فى القوانين والعادات وفى نظم النقود ونظم الحكومات ، حتى نرسم الطريق الوحيد إلى أبعادنا البشرية ، كما اهتدت الكواكب إلى أفلاكها ... ثم نسير معاً فى وفاق بحافز إنشائى عظيم نحو الاتحاد والنظام والقصد »

* * *

لما ظهر بيكون الثانى كان الزمن قد تغير وتطور كما نرى من الحرفة التى احترفها ، إذ كان محامياً وسياسياً بينما بيكون الأول كان راهباً . وهكذا انتقل العلم من الدير إلى المدرسة والمكتب . ومعنى هذا الانتقال ان الدين كان فى المقدمة يغمر كل شىء فى القرن الثالث عشر، ولكنه تراجع فى القرن السادس عشر وأصبحت هناك حرف جديدة غير الدين يحترفها العلماء والخاصة . وليس بيكون الثانى سوى بيكون الأول قد بولغ فى نزعته الأولى ، وهى الاعتماد على التجربة . وقد وجد فى عصره قبولا لم يجده سميه السابق

ألف بيكون الثانى فى ١٦٠٥ كتابين فى الطرق التى يمكن أن تتقدم

بها المعارف البشرية ، دعا فيهما إلى ضرورة التجربة باعتبارها الأساس لهذه المعارف وإلى الاعتماد على الطبيعة دون الكتب . وإليك كلمات منه تدلك على الغاية التى وضعها نصب عينيه . فهو يقول مثلا :

« الإنسان خادم الطبيعة ومفسرها »

ثم يقول :

« هناك عدة أدلة تدل على أنه لا يزال فى جوف الطبيعة أسرار كثيرة لها قيمتها العظمى وليس لها شبه أو قرابة بما نعرفه نحن الآن . وهى بعيدة عن خيالنا لم نقف على كنهها بعد »

ثم يقول فى انتقاد الطب :

« ولنا هنا أن نلاحظ كيف أن الأطباء قد كفوا عن استعمال تلك الطريقة المفيدة التى كان أبقراط يتبعها حين كان يدون العلاجات الخاصة بجد ودقة حيث كان يصف طبيعة المرض وظروفه » . « ... وهذا التدوين للتقريرات الطبية نجده الآن ناقصاً ، وخاصة من حيث إيجاد مجموعة منظمة قد هضمها البحث والتمييز »

فمن هذه المقتبسات يتضح للقارىء أنه يريد الاعتماد على التجربة، ثم جمع التجارب وتدوينها لاستخراج النتائج . وقد اقترح إيجاد كلية اطلق عليها اسم « بيت سليمان » تجمع فيها طوائف العلماء للدرس والتجارب . وبهذه الكلية آلات وأجهزة وأفران لهذه الغاية . ويمنح المشتغلون فيها أجازات طويلة مع النفقات الضرورية لكى يرحلوا إلى الأمم الأخرى ويجمعوا منها بالمشاهدة ما يزيد معارفهم

ثم نجد فى جميع مؤلفاته أقوالا تشبه ما كان يقوله روجر بيكون

لدعوته إلى التجربة المباشرة بدلا من القياس المنطق. وأخيراً نرى فى ختام حياته رمزاً للغاية التى نشدها ، إذ أنه أصيب بالأنفلونزا لأنه وقف يحشو طائراً ميتا بالثلج كى يرى أثر البرودة فى منع العفونة

وليس كل من بيكون الأول ولا بيكون الثانى عالماً ، بالمعنى الذى نفهمه الآن من هذه الكلمة . ولكنهما كانا يدعوان إلى الطريقة العملية وهى التجربة . فكلاهما يدعو إلى المذهب العلمى ، ولكن لم يكن أحدهما « عملياً » أى أنه لم يتخصص فى تجارب عملية

وميزة فرنسس بيكون أنه نقل أوربا من التفكير الفلسفى الإغريقى إلى التفكير العلمى التجريبى . والفرق بين الاثنين عظيم جداً . لأن الفيلسوف الإغريقى كان يضع المذهب ثم يجمع الحقائق التى توافقه ، أى توافق هذا المذهب . كأنه كان يعتقد أن فى الكون أصولا ومبادىء يجب التسليم بها قبل دراسة الأشياء . ولكن التفكير العلمى يعتمد أولا ، وفقط ، على التجربة أو ما يقابل التجربة من الاختبارات ثم يستنتج من التجارب مبادىء وأصولا . وقد تبلور هذا الأسلوب فى فلسفة هوبز (١٥٨٨ — ١٦٧٩) المادية حتى قصر موضوع الفلسفة على المادة وحركتها

وبكلمة أخرى نقول أن الإغريق اعتمدوا على التفكير ولم يعتمدوا على المشاهدة . ومن هنا عنايتهم الكبيرة بالمنطق لأنه حركة ذهنية محضة. وكتاب بيكون « نوفوم أورجانوم » أو « الوسيلة الجديدة » هو دعوة إلى التجربة وإننا لن نفهم أكثر مما نعاين . ولكن حتى بعد المعاينة يجب ألا نثب إلى الاستنتاج ، إذ يجب أن نعيد المعاينة والتجربة قبل

أن نصل إلى الاستنتاج . أما اجترار المنطق ونحن بعيدون عن المشاهدة والتجربة فعقم وضرر

ومن أحسن ما التفت إليه بيكون فى كتابه هذا هو التنبيه إلى الخطأ السكلوجى فى التفكير الشائع فى عصره وقبله . وهو نقل المنطق البشرى بل المقاييس الاجتماعية إلى الطبيعة . وهذا هو ما وقع فيه الإغريق . حتى أنهم ظنوا أن الكون منتظم فى دوائر لأن الدائرة هى الشكل الكامل . وما دام الكون كاملا فيجب أن يسير فى دوائر

وكذلك التفت إلى ضرورة إيجاد لغة خاصة للتفكير بحيث لا تتحمل كلماتها التباسات اللغة الدارجة بين العامة أو بين الكتاب . وهذا هو ما انتهى إليه العلميون فى أوربا ، إذ أنهم يتخذون كلمات خاصة للعلوم يتعارفون عليها مهما اختلفت لغات الكلام بينهم . بل هذا ما نحتاج إليه فى مصر حيث نجد مشقة كبيرة فى استقطار معنى علمى من كلمات مشتبهات كقولنا الشعور بمعنى الإحساس، والكبت بمعنى الكظم. إلخ

وفى كتابه هذا نصح بيكون أيضاً أن نتجرد من أهوائنا واستغراضاتنا

وأخيراً نصح بأن تتخلص الفلسفة من الدين حتى تنطلق حرة بلا عائق من العقائد

* * *

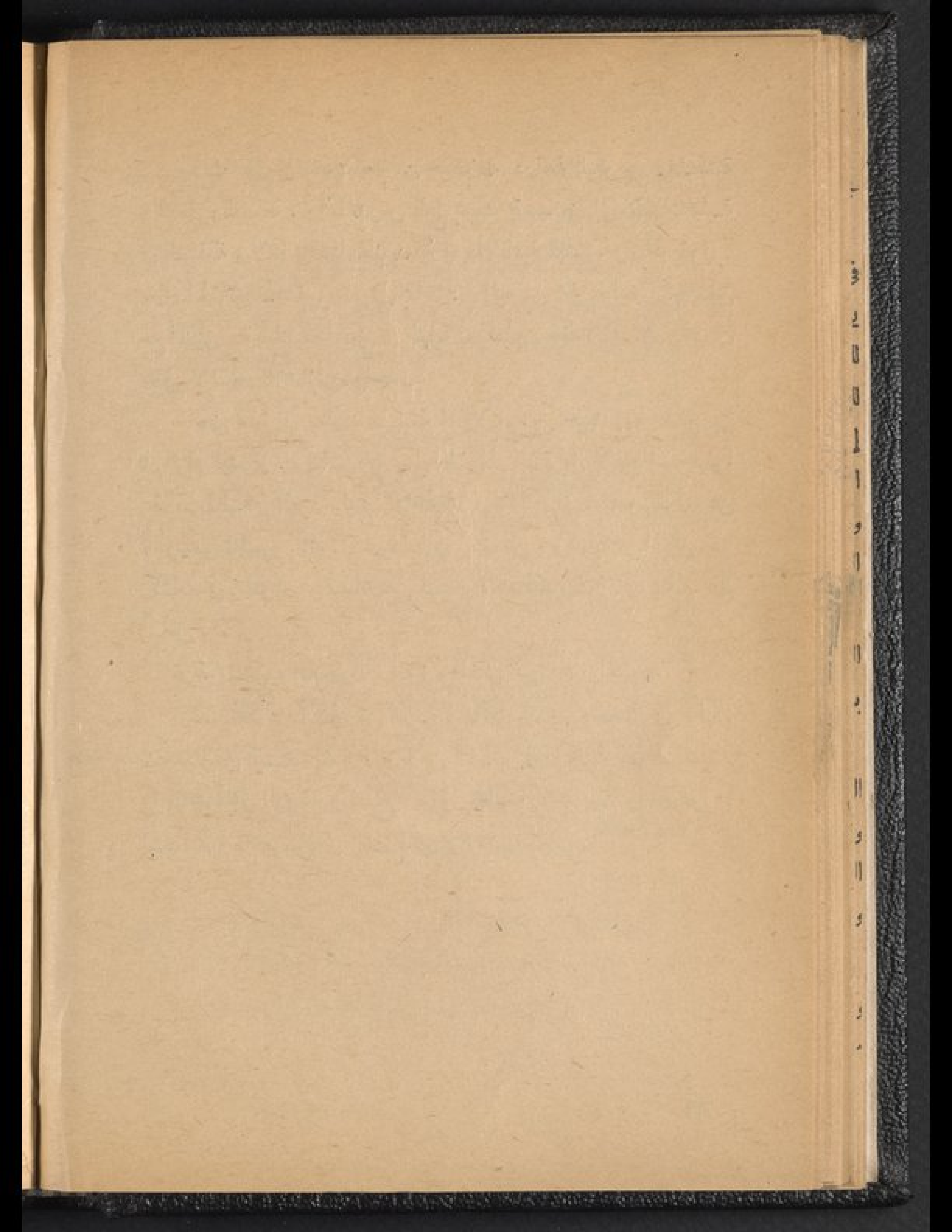
ولم يكن بيكون مع ذلك مكتشفاً أو مخترعاً . ولم يكن له معمل للاختبار والتجربة . لأن مهمته لم تكن مهمة الاكتشاف أو الاختراع، وإنما كانت مهمة وضع الخطط ورسم المناهج للوصول إلى الإكتشاف والاختراع

وذلك بأن لا نبحث العلم من حيث أنه دراسة الكرسى والمكتبة والتأمل والفلسفة . وإنما ندرس العلم بحيث نقصد منه إلى نتيجة عملية فى الصناعة ، لأننا بالصناعة نزيد الثراء والرفاهية للبشر . ولذلك يقول : « إن الحقائق تكشف وتعرف بما تؤدى إليه من عمل ، وليس لأنها تتفق مع المنطق . وقولنا هذا يعنى فى النهاية أن تحسين حظ الإنسان وتحسين عقل الإنسان كلاهما شىء واحد »

ومعنى هذا أن معارفنا لا قيمة لها إلا من حيث إننا ننتفع بها فى الرقى البشرى . ولذلك حمل على فلاسفة الإغريق لأنهم استخدموا عقولهم للتفكير المجرد وليس للاختراع والاكتشاف . فهو يقول عن « أرسطوطاليس » انه : « سوفسطائى متعوس . وكتابه فى المنطق هو كتاب فى الجنون . وغيبياته هى نسيج العنكبوت الذى يبنيه على أساس واه »

ويقول عن « أفلاطون » أنه : « مفكر غبى أبله زائف »

ولسنا نجد هنا أكثر من النزعة والاتجاه اللذين يلخصان فى قولنا : « دعونا من القدماء . دعونا من التفكير فى المكتبة بين الكتب . واخرجوا إلى الورشة والمصنع ، وإلى الطبيعة ، جربوا واخترعوا . استخدموا ما تعرفونه فى زيادة الخير والرفاهية للبشر »



داعية الشك الفلسفى

نستطيع أن نقول أن « فرنسس بيكون » الإنجليزى قد وضع المنهج للتفكير العلمى بالإكبار من شأن التجربة . أما « ديكارت » الفرنسى (١٥٩٦ — ١٦٥٠) فقد وضع المنهج للتفكير الفلسفى بالإكبار من شأن الشك ، حتى لانسلم بشىء إلا بعد أن نعالجه كما لو كان مسألة أو نظرية من نظريات « إقليدس »

وقواعد التفكير السليم عند ديكارت هى :

١ - لا أعترف بصحة شىء مالم أجده كذلك ، بلا تعجل أو استغراض

٢ - تجزئة الصعوبة إلى أجزاء وحل كل منها على حدة

٣ - ثم التأمل بالترتيب ابتداء من الأشياء البسيطة التى يسهل فهمها ثم الانتقال خطوة بعد خطوة إلى الأشياء الصعبة

٤ - الإحاطة والتعميم بحيث أثق أنى لم أترك شيئاً

وهذه القواعد الأربع تشبه بل تطابق التدليل فى نظريات أقليدس . ولكن هنا الفرق الأساسى بين بيكون التجريبى وبين ديكارت التفكيرى .

لأن البرهان عند ديكارت عقلى مهما قلنا أن منهجه يحوط هذه البراهين بما يمنع الخطأ . ولكن البرهان عند بيكون تجريبى ، يجرى باليد كما يجرى بالعقل . أى يجب أن نجرب أكثر مما نفكر . وهذا هو منهج المدرسة الإنجليزية على وجه عام . إذ هى مدرسة العلم وليست مدرسة الفلسفة . فقد حدث أن « جينر » الطبيب الذى اهتدى إلى لقاح الجدرى أرسل إلى «هنتر» خطاباً يقول فيه : « أنا أرتأى أن ... » فرد عليه هنتر بقوله : « لاترتأى ولكن جرب »

منطق ديكارت يقول : « أقعد على كرسيك ، وتأمل ، وفكر بعقلك ، واحترس من الخطأ بالقواعد الأربع التى ذكرت »

ولكن منطق بيكون يقول : « انهض ، وشاهد بعينيك ، وافحص بسائر حواسك ، ثم جرب بيديك »

وقد انتفعت الأبحاث التجريبية العلمية من منطق ديكارت من حيث النفور من التسليم بصحة الأقوال أو العقائد أو الفروض التى لم يفحص عنها . ولكن حضارة أوربا القائمة هى ثمرة المنهج البيكونى ، أى التجربة أو التفكير بالعقل واليد معاً

وعند ما نتعمق مؤلفات ديكارت تتأكد لنا صحة القول بأنه ينزع إلى الفلسفة وليس إلى العلم . فإنه يقول مثلا أن هناك ثلاثة أنواع من التفكير هى :

١ ـ التفكير الأصلى أو اللدنى مثل بديهيات الرياضة : ٦ أكبر من ٥

٢ ـ التفكير الاستنتاجى من الحواس . وقد شك هو فى قيمة هذا التفكير . ولكنه عاد فقال أن هذا التفكير يجب أن يكون سليما

فإذا قلت مثلا أن هذا المنزل موجود مع أنه غير موجود ففى هذه الحال يكون الله الذى خلق لى الحواس التى أعاين بها هـذا المنزل قد غشنى . وهذا غير معقول

٣ - التفكير الكاذب أو الخرافى . كالإيمان بالجن الخ

والحقيقة الأولى عند ديكارت تنحصر فى كلماته هذه : أنا أفكر . ولذلك أنا كائن

وكلمة الشك عند ديكارت تكاد تكون بمثابة الامتحان العلمى . ولذلك يضع شروط هذا الشك الواقية من الخطأ . أى أنه شك منهجى أو شك منظم

وفى تفكير ديكارت كثير من الغيبيات ، تراث القرون الوسطى ، التى حاول هو نفسه بمنهجه أن يصفيها أو يكسبها شيئاً من المنطق . اعتبر مثلا قوله أن الكائنات ثلاثة هى :

١ - أرواح مخلوقة مثل نفس الإنسان التى تفكر . وهى متصلة اتصالا غير وثيق بالأجسام

٢ - روح غير مخلوق هو الله ، وهو عنده بالطبع رب المسيحية

٣ - أجسام مخلوقة مادية لها خاصة التحيز مكاناً وزماناً وهى خارجة عن تفكيرنا مستقلة منه . وهذا التقسيم ، بل هذا الادمان على «مخلوق» و « غير مخلوق » ثم « روح » و « مادة » ، هو بعض تفكير الرهبان فى الدير أيام القرون الوسطى . وقد وجد ديكارت نفسه فى مأزق عندما حاول أن يفهم كيف يحرك الجسم (: مادة) النفس (: روح) ...

وصعوبات ديكارت هى صعوبات سيكلوجية ، لأن محاولاته

فلسفية عقيمة ، ولذلك لم يستطع تفسير المعرفة بعد أن ربك نفسه بالفصل بين المادة والروح

وعندما نتعمق مؤلفات ديكارت تتأكد لنا صحة القول بأنه ينزع إلى الفلسفة وليس إلى العلم

وكى نزيد الوضوح فى الفرق بين منهج ديكارت التفكيرى ومنهج بيكون التجريبى نضرب مثلا بالأسلوب الذى اتبعه فى إثبات الله :

١ - فإن ديكارت يقول : إن الله كائن كامل أبدى غير محدود . وهو الذى خلقنى . وأنا محدود . ولذلك لا أستطيع أن أخترع كائناً غير محدود زماناً ومكاناً

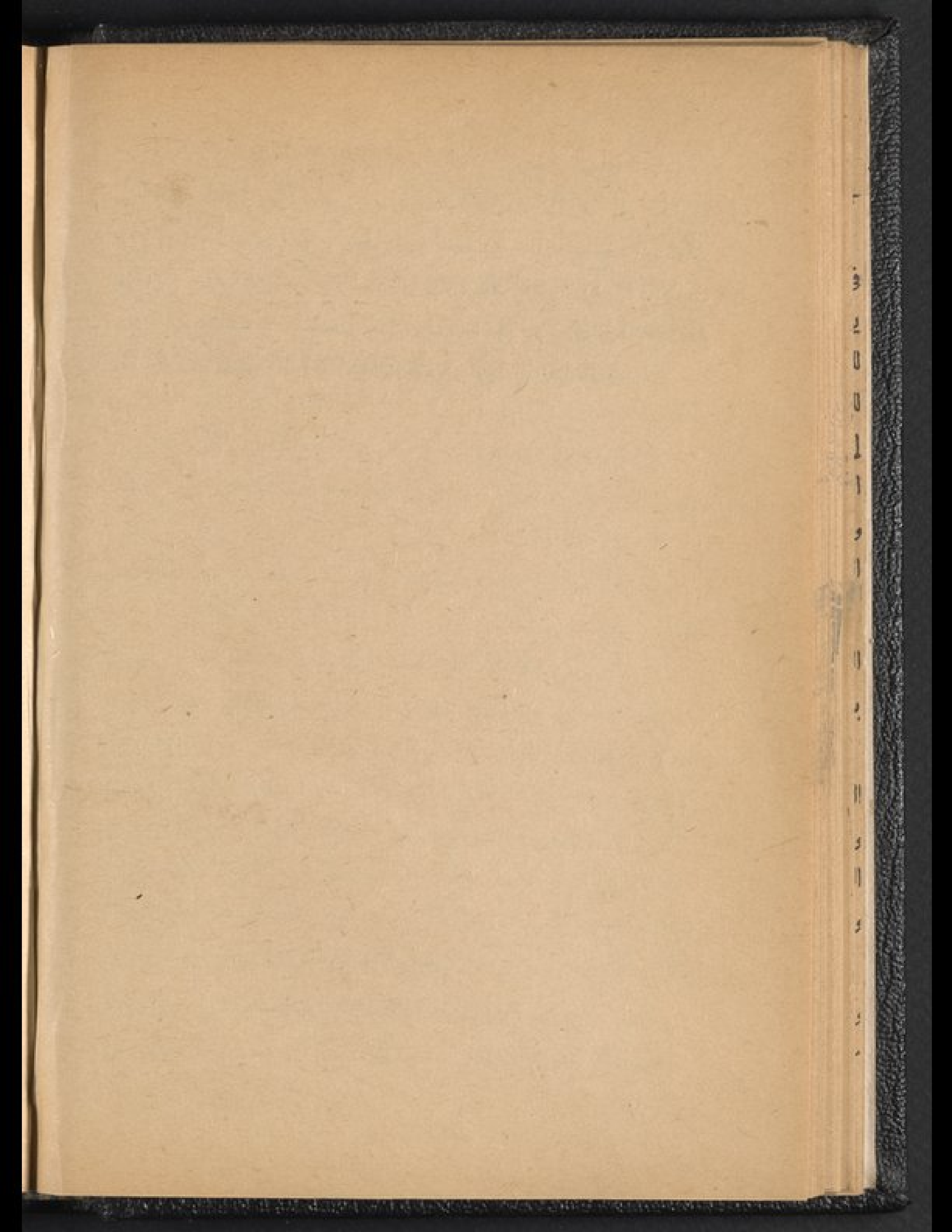
٢ - إذا كنت أعرف شيئاً أكمل منى فهذه المعرفة قد جاءتنى من الخارج . ولست أنا أصلها . جاءتنى من كائن كامل هو الله

٣ - أنه يمكن بالاعتماد على الصفاء والوضوح أن نجد الله

فهنا نجد أن منهج ديكارت هو منهج المفكر القاعد على الكرسى يعالج المشكلة كما لو كانت سيكلوجية فقط خاصة به . ولكن منهج بيكون التجريبى فى هذه المشكلة يطالبنا ببحث الأديان جميعها كما عرفها الإنسان . والفكرة الخاصة بالله عند جميع الأمم القديمة والحديثة . ثم البحث عن حلقات التطور فى سلسلة العقائد إلى أن نصل إلى الإيمان العنصرى . أى أننا نعتمد على المشاهدة والاختبار اللذين يقومان هنا مقام التجربة باليد بدلا من أن نعتمد على التفكير المجرد ونحن قعود على كراسينا

وقد أوذى التفكير الأوربى بالفصل الذى أقامه ديكارت بين العقل والمادة ، أو الروح والجسم . ولكن ديكارت وهو يحاول الوصول

إلى اليقين عن سبيل الشك المنظم قد زاد الشكوك وحطم الثقافة التقليدية ، أى ثقافة القرون الوسطى . وقد احتاجت أوربا إلى سبينوزا (١٦٣٢ — ١٦٧٧) كى تحقق اتزاناً جديداً يجعل الروح ، أى العقل والنفس ، خاصة من خواص المادة والجسم . فقد ناقض سبينوزا ديكارت ووحدت فلسفته بين المادة والعقل . ولكنه اتفق مع ديكارت أن الفلسفة لا تكون صحيحة إلا إذا استطعنا التعبير عن حقائقها بالرياضيات



أثر الأدب العربى فى الآداب الأوربية

من الحقائق المسلم بها ، أن النزعة العلمية التى شاعت فى أوربا فى عصر النهضة ، ترجع أصولها إلى التجارب الكيميائية التى كان يجريها العرب لتحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب ، إذ أن تلك التجارب كانت بمثابة البذرة أو الخميرة « للمنهج العلمى » الحديث

ولذلك يرى الأوربيون أن للعرب فضلا كبيراً على العلم الحديث . فهل نستطيع أن ننسب لهم فضلا كذلك على الأدب الغربى . الرأى السائد فى أوربا أن الأدب العربى بعيد كل البعد عن الأدب الغربى . وقد لا يخطر ببال واحد من ألف من قراء الأدب الأوربى أن لهذا الأدب علاقة بالأدب العربى . فقد استقر فى الأذهان . أن الأدب الغربى ترجع أصوله إلى الأدبين اللاتينى والإغريق . وقليل من المستشرقين والباحثين يرى فى الأدب العربى أصلا من أصول الآداب الأوربية الحديثة . ولعل أبرزهم جميعاً المستشرق « جيب » أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن الذى نلخص له هذه السطور من كتابه « تراث الإسلام »

« فى آخر القرن الحادى عشر ظهر فجأة طراز جديد من الشعر الغزلى

فى جنوب فرنسا . كان طرازاً جديداً فى موضوعه وفى أسلوبه ومعانيه . ولم يكن لهذا النوع من الشعر أساس فى الأدب الفرنسى القديم : وهو يشبه الشعر الأندلسى شبهاً قوياً جداً . إذ هو ضرب من الموشحات والأزجال الأندلسية الغنائيـــة التى تدور موضوعاتها على الغزل والحب العذرى

« أليس من المعقول إذن أن نرد هذا الضرب من الشعر الفرنسى الجديد ، إلى الشعر العربى الأندلسى ، وخاصة إذا علمنا أن نظرية « الحب العذرى » التى يدور عليها هذا الشعر الفرنسى الجنوبى ، ليس لها أصل فى الأدبين اللاتينى والإغريقى ؟ »

لقد دلل المستر جيب على هذا الرأى فى الكتاب الذى أشرنا إليه تدليلا قوياً لايدع مجالا للشك فى صحته

* * *

ليس الأمر مقصوراً على الشعر الفرنسى . ولكن الشعر الإيطالى أيضاً تأثر تأثراً قوياً بالشعر العربى فى صقلية . وخاصة فى عهد « فريدريك الثانى » الألمانى

وقد يشك فى أن الشعر الأوربى قد تأثر قليلا أو كثيراً بالشعر العربى . ولكن الأمر الذى لاشك فيه هو أن نثر القرون الوسطى فى أوربا يرجع فى كثير من أصوله إلى النثر العربى . فقد كان الأدب التقليدى فى القرون الوسطى أدباً صارماً جامداً ، يخاطب الخاصة ولا ينزل لافهام العامة . ومن هنا كانت الحاجة العامة إلى ذلك الضرب من الأدب الخيالى الذى يعنى بإشباع الحواس أكثر مما يعنى بالمنطق

والعقل . فلما نقلت إلى أوربا بعض «الحكايات» ذات المغزى ، وبعض القصص الخرافية كقصة السندباد البحرى وما إليها ، وجد فيها الشعب حاجته المنشودة وأقبل عليها إقبالا شديداً ، فأصبحت بمثابة الخميرة للأدب «الخيالى» الجديد الذى أخذ ينازع الأدب التقليدى القديم مكانه . ومن ثم ذاعت القصص الخيالية الرومانتية ذيوعاً عظيما . ولو فحصنا عن هذه القصص ، لوجدنا أن كثيراً منها يرجع إلى أصل عربى بحت . وهناك قصة فرنسية يسمى بطلها «القاسم» وهو اسم عربى لا شك فيه

يتضح من هذا أن التيارات الشعبية فى الأدب الأوربى فى القرون الوسطى كانت أقرب إلى روح الأدب الشرقى منها إلى الأدبين اللاتينى والإغريقى اللذين كانا بطبيعتهما أميل إلى الارستقراطية . ذلك أن الأدب الشرقى فى جملته ينزع إلى الخيال والألوان الزاهية الجذابة . فكانت أوربا كلما احتكت بالشرق استلهمت روحه ، وتأثرت بأدبه أشد تأثر . فتأصل الأدب الخيالى الجديد فى أوربا وترعرع حتى كاد يزحزح الأدب التقليدى من مكانه

حدث هذا فى القرون الوسطى ، فلما بدأت النهضة العلمية ، نزعت أوربا إلى درس الحضارة الإغريقية . فأهملت الشرق ، وأصبحت مقاييس الأدب الإغريقى القديم هى السائدة فى أوربا فى عصر النهضة . ومن ثم تغلبت النزعة التقليدية القديمة فى الأدب على النزعة الخيالية الجديدة بعض الزمن ، غير أن النزعة الخيالية الجديدة ـ وهى نزعة شعبية خالصة ـ لم تخمد تماماً . ولكنها كانت تحاول الظهور من حين

إلى آخر . وهذه القصة الرومانتية الفرنسية ، والفولكلور الألمانية ، والدرامة الإنجليزية ، التى فشت فى القرن السابع عشر ، كانت من آثار النزعة الخيالية التى بدأت فى القرون الوسطى والتى حاولت النهضة العلمية أن تقتلها فلم تفلح . ثم كان القرن الثامن عشر ، فتم النصر للأدب الخيالى . وقد كانت قصص ألف ليلة - التى ترجمت سنة ١٧٠٤ - أقوى عامل على هذا النصر . فقد أقبلت الجماهير على قراءتها فى شغف شديد وراح الكتاب يقلدونها فى قصصهم

ويرجع نجاح كتاب ألف ليلة إلى حالة الأدب الإنجليزى والأدب الفرنسى فى القرن الثامن عشر . فإن انتشار القراءة قد أنشأ جمهوراً جديداً من القراء لم يكن الكتاب يحسبون له حساباً من قبل . وهذا الجمهور الجديد كانت له مطالب وحاجات جديدة فأخذ الكتاب يحاولون إرضاءه وإشباع حاجاته . ولكنهم كانوا فى حيرة شديدة ، يتحسسون طريقهم إلى معرفة حاجات الجمهور فلا يكادون يصلون إليها . فلما ظهرت قصص ألف ليلة ، ورأى الكتاب إقبال الجمهور الغربى عليها ذلك الإقبال الشديد ، تنبهوا لهذه الظاهرة الجديدة وأخذوا يدرسونها لعلهم يقفون على السر فى شغف الجمهور الاوربى بذلك الأثر الشرقى الطارىء . فتبين لهم بعد طول التمحيص أن قصص ألف ليلة وليلة ، وإن نقصها مقومات العمل الفنى الكامل ، إلا أنها تنفرد بخاصة من أهم الخواص التى تحبب الجماهير فى القصص ، هى روح المجازفة والاقتحام . فعمل الكتاب على إدخال هـذا العنصر الجديد فى قصصهم . ومن هنا كانت قصة روبنسن كروزو ، وأسفار جوليفر ، وما إليها من القصص

التى ما كانت تظهر لولا قصص ألف ليلة

أما فى القرن التاسع عشر فقد تأثر الأدب الألمانى إلى حد كبير بالآداب العربية والفارسية والهندية . وكان « جوته » يستلهم روح الشرق فى كثير من قصصه التى مزجها بالخيال الشرقى . و « هين » الذى لم يسلم الأدب الشرقى من سخريته اللاذعة ، لم تخل قصائده الغنائية من روح الشرق

وقد كان « شوبنهور » يتوقع اشتداد النزعة نحو الأدب الشرقى ، وامتدادها من ألمانيا إلى فرنسا وانجلترا . ولكن حدث مالم يكن فى حسبانه . فقد وقفت الآداب الفرنسية والإنجليزية فى وجه تلك الحركة ، فقضت عليها . ذلك أن العقل الغربى تحول فجأة عن الشرق . فقد انصرف عنه إلى فلاسفته الجدد ، وما ظهر وقتئذ من أفكار سياسية جديدة ، ومخترعات جديدة ، وتطور صناعى سريع ، فلم يكن فى حالة تسمح له بالالتفات نحو الشرق فضلا عن الانكباب على دراسته

وقد كان « جوته » يحلم بجعل الأدب الألمانى أدباً إنسانياً عالمياً ، فتحطم هذا الحلم الجميل بظهور الحركات القوميةواشتداد النعرةالوطنية . ومع ذلك لا يمكننا تجاهل مكان الأدب الشرقى من الآداب الغربية فى جميع العصور

وقد يظهر لنا لأول وهلة أنه مكان ضئيل . ولكننا إذا لاحظنا أن الأدب الشرقى لم يكن إلا بمثابة الخميرة للنزعات الأدبية الجديدة فى أوربا ، أدركنا مبلغ ما كان له من أثر فى تكييف الأدب الغربى وتوجيهه . ويكفى أن نقول أن الشرق كان كلما اتصل بالغرب عمل على

تحرير الخيال الغربى من القيود ، وتخليصه من كابوس الأدب التقليدى القديم

فأثر الأدب الغربى فى الغرب ليس أثراً عادياً ملموساً يمكن إدراكه فى سهولة ويسر ، وإنما هو أثر معنوى - ان صح هذا التعبير - لأنه فى حقيقة الأمر لم ينقل إلى الغرب نماذج أوأساليب أدبية معينة ، وإنما نقل إليه روح الشرق . فكان أثره فى بواعث الأدب وغاياته أكثر مما كان فى أساليبه وأشكاله الظاهرة. ثم يجب أن نذكر أن الغرب لم يأخذ عن الشرق نزعات أدبية جديدة لم يكن له بها عهد من قبل ، فإن البذور كانت موجودة فى الغرب ، ولكنها كانت فى حاجة إلى حافز يحفزها حتى تنمو وتترعرع ، فكان الروح الخيالى الشرقى هو الحافز المنشود . ومن هنا يصعب على الباحث أن يميز بين عناصر الأدب العربى التى طرأت على الأدب الغربى فى مختلف العصور ، لأن تلك العناصر قد اندمجت فى الآداب الغربية اندماجاً تاماً وطغت عليها الألوان المحلية فغمرتها

العرب أصل النزعة العلمية

أقدم الجامعات فى أوربا هى جامعات طليطلة وقرطبة واشبيلية ، وهى التى ازدهرت فى أيام العرب . ثم كان أقدم الجامعات التى ظهرت فى أوربا المسيحية بعدها جامعات دينية أنشئت فى باريس واكسفورد . وكانت المدارس فى سالرنو وبولونيا ومونبلييه فى إيطاليـة وفرنسا ثغوراً للثقافة العربية

وكان من ميزات الثقافة العربيـة أنها عنيت بعلوم الإغريق دون آدابها ، فنقلها العرب وزادوا عليها ونقحوا فيها . فقد أخذوا الكيمياء المصرية فجعلوها علماً تجريبياً لم يختلط بالصوفية إلا فى أواخر تاريخهم . أما الطب والفلك والبصريات والميكانيات فقد برعوا فيها . وأخذوا الجبر الهندى الممزوج بالبـــلاغة فاستعملوه فى الرياضة كما أخذوا الأرقام الهندية

وهذه العلوم هى أصل النهضة الاوربية ، وقد كان يسايرها أدب الإغريق وثقافتهم فى الفلسفة والمنطق وما إليهما . ولـكن هذه الثقافة كانت تؤخر أوربا بينما هذه العلوم كانت تعمل لتقدمها . ولـكن نرى

« روجر بيكون » فى القرن الثانى عشر يراقب هاتين الحركتين ، حركة الأدب والفلسفة من الإغريق وحركة العلوم التجريبية من العرب ، فيقول : « لو كان لى أن أفعل ما أشاء لأحرقت جميع الكتب التى ألفها أرسطوطاليس لأن درسها لايؤدى إلا إلى ضياع الوقت ولا ينتج غير الجهل »

وقد ولد روجر بيكون ومات خلال القرن الثالث عشر . وكان يدرس فى جامعة اكسفورد . وهو يمثل لنا الفرق بين الطريقة الإغريقية ، طريقة التفكير الفلسفى ، والطريقة العربية ، طريقة التجربة التى اندفع إليها العرب بتجاربهم الكيماوية . ونحن ننقل هذه القطعة التالية منه لأنها تمثل صراعاً بين طريقتين فى زمنه :

« أما وقد شرحنا المبادىء الأساسية لحكمة اللاتينيين كما هى موضحة فى اللغة والرياضة والبصريات أرغب الآن فى أن أشرح مبادىء العلم التجريبى ، وذلك لأنه بدون التجارب لا تمكن معرفة شىء على وجه الكفاية . وذلك أن هناك طريقتين للتعلم أواكتساب المعرفة هما طريقة التفكير وطريقة التجربة . فبالتفكير نستنتج النتائج ونسلم بها . ولكن التفكير لا يجعل النتائج يقينية ولا هو يزيل الشكوك حتى يسكن العقل إلى الحقيقة مالم يهتد العقل إلى هذه الحقيقة عن سبيل التجربة . ومن الناس كثيرون يستطيعون المناقشة فيما يمكن معرفته ولكنهم لايناقشون لأن التجربة تنقصهم وبذلك لا يتجنبون الضرر ولا يتبعون المفيد . وذلك أنه إذا كان ثم رجل لم ير النار يمكنه بالتفكير أن يثبت أن النار تحرق وتتلف الأشياء فإن عقله لا يقنع بذلك . وهوأيضاً لايتجنب النار

بذلك مالم يضع يده أو يضع شيئاً يحترق فى النار فيثبت بالتجربة ماقاده إليه تفكيره . وبعد أن يجرب هذه التجربة العلمية بالنار تتضح له الحقيقة . وعلى ذلك نقول أن التفكير لا يغنينا وإنما الغناء فى التجربة ،

ويجمع الآن المؤرخون حوادث تلك القصة التى سبقت « كوبرنيكوس » بنحو أربعمائة سنة ، وهى قصة تسرب المعارف العلمية إلى أوربا قبل النهضة الكبرى

وخلاصة هذه القصة أنه عقب إحراق المكتبة الثانية التى كانت بالاسكندرية انتشرت الثقافة الإغريقية فى الشرق الأدنى . وذلك لأن البلاط الفارسى رحب بالعلماء اليهود والنسطوريين الهراطقة والأفلاطونيين فتوافدوا إلى فارس . وترجمت الكتب العلمية الإغريقية إلى اللغة السريانية ثم بعد ذلك إلى العربية

ولما استتب الإسلام صارت بغداد ملتقى الدراسات الإغريقية لبطليموس وأرخميدس وأقليدس وأبقراط وأيضاً للدراسات الهندية التى عرف العرب بوساطتها الجبر ، هذا العلم الذى صار بعد ذلك أكبر معوان لتقدم الميكانيات فى القرن السادس عشر فى أوربا . وكانت الأزياج الهندية فى الفلك قد أدخلت فى فارس قبل تأسيس مدرسة بغداد بنحو خمسين سنة ، ومعها الحساب الهندى . وكلاهما دخل بعد ذلك بغداد

وقد افتتحت مدرسة بغداد بترجمة المجسطى لبطليموس وهندسة أقليدس ومؤلفات أبقراط ، نقلها إلى العربية مترجمون من اليهود . وكانت أزياج طليطلة (سنة ١٠٨٠) والأزياج الألفونسية طلائع

البحث فى الفلك وأساس الملاحة مدة الاكتشافات الكبرى . ولما أخرج المسلمون من أسبانيا بقى اليهود ، فكانوا يختصون بالفلك فى برتغال وبالطب فى أسبانيا . وكان الطب فى ذلك الوقت يدرس باعتباره ثقافة وليس باعتباره موضوعاً ، ولذلك فإنه كان ينتظر من الطبيب أن يعرف الرياضيات

وقبل أن يخرج العرب من أسبانيا كان اليهود الأسبانيون المتغربون قد انتشروا فى أوربا يحملون معهم ترجمة العلوم الإغريقية ومؤلفات الخوارزمى وابن سينا وابن رشد . ونرى فى القرن الثانى عشر بل قبله طوائف من اليهود ينشئون فى أوربا مدارس للطب ويستعملون الكتب العربية أو المنقولة من العربية إلى اللاتينية . وكان النقل أحياناً من العبرانية التى بقيت مدة ما لغة التعارف والثقافة بين الأمم . ونرى فى نهاية القرن الحادى عشر أن العالم اليهودى « إبراهيم بارشيا » وهو من المترجمين الذين أدخلوا الرياضيات الجديدة فى أوربا ، يلوم اليهود الفرنسيين لأنهم يجهلون الرياضيات . وفى سنة ١١٣٤ نجد كتاباً عظيماً يؤلفه فى الفلك عالم يهودى يدعى « ابراهيم بن حيا » فى مارسليا . وفى ذلك الوقت بينما كانت جامعة أكسفورد تقرر تدريس جزء صغير من الكتاب الأول لأقليدس نجد أن علماء قرطبة وطليطلة يؤلفون الكتب فى نظرية الأعداد وفى حساب المثلثات الكروى . وفى سنة ١١٥٨ نجد رجلا يدعى « ربى بن عزرا » يسافر إلى انجلترا ومصر وينقل إلى أوربا الجبر والكسور العشرية . وفى القرن الثالث عشر نجد أسماء أخرى مثل « موسى بن طبون » و « يوحنا هسبالنسس » وهما من اليهود الذين

كانوا ينقلون من العربيـة إلى اللاتينيـة مؤلفات أقليـدس وبطليموس وأرخميدس وأبقراط وجالينوس

وكان جميع الناقلين من اليهود ما عدا قليلين من المسيحيين مثل « ادلهار » الذى ادعى الإسلام ليتعلم فى قرطبة و « ليوناردو بيزو » و « ليوناردو فيبوناكى » و « جريجورى كريمونا »

وكما قلنا آنفاً أن الفلك ارتقى عند العرب أكثر مما ارتقى عند الإغريق ونعرف أن « رجيبومونتانس » الذى سبق « كوبرنيكوس » تعلم الفلك من مصادر عربية

وفى نفس السنة التى ظهر فيها مؤلف كوبرنيـكوس فى الفلك ظهر فيها أيضاً كتاب ألفه «فساليوس» عن «مصنع الجسم الإنسانى» فـكان رائداً جديداً للطب الحديث . وفى هـذا الـكتاب نجد أن فساليوس يعتمد كثيراً على المؤلفات العربية والعبرانية ويدعو إلى التجربة والتشريح اللذين بدأ بهما الطبيب اليهودى « موندينو » فى بولونيا حوالى سنة ١٣٠٠ . ومدرسة بولونيا الطبية تأسست سنة ١١٥٦ والذى قام بتأسيسها يهود أسبانيون . وهذا ما حدث أيضا فى المدرسة الطبية فى مونبلييه سنة ١٢٢٨ وفى مدينة سالرنو أيضاً قبل هـذا التاريخ . وفى سالرنو هذه استخدم فريدريك الثانى طائفة من العلماء اليهود فى ترجمة الـكتب العربية الطبيـة والرياضية إلى اللغة اللاتينية

وكان نقل الفلسفة الإغريقية من العربية إلى اللاتينية قد بعث رجال الدين فى أوربا منذ سنة ١٣٥٠ إلى البحث عن الـكتب الإغريقية القديمة لـكى يعتمدوا عليها فى البلاغة والجدل الدينى . وذلك لأن العرب لم يبالوا

بهذه الكتب ، وإنما كانت عنايتهم متجهة نحو درس العلوم الطبية والرياضية الإغريقية .وعلى كل حال نجد أنه عندما شرعت أوربا فى درس الإغريق القدماء كانت الثقافة العربية قد وجهتها نحو درس العلوم التى رقى بها العرب إلى مستوى أعلى من مستواها السابق أيام الإغريق القدماء

ومن هنا نعرف أن أساس النهضة العلميـة فى أوربا هى النزعة التجريبية التى نزع إليها العرب ونقلها اليهود إلى أوربا ، فكانت البـذرة الصالحة للحضارة الصناعية الراهنة

الحركة البشرية الثانية

كانت إيطاليا البادئة بالنهضة في القرن الخامس عشر لأنها كانت مركز البابوية الحافل بالديورة والمكتبات . وكان للطبعة أثرها في بعث الكتب القديمة وتحريك الأذهان بمناقشتها والتفكير في موضوعاتها . ويمكن أن يقال على وجه الإجمال أن هذه النهضة الإيطالية بدأت أدبية ثم انتهت علمية بـ «جاليل» الفلكي وغيره من أساتذة الطب الذين شرعوا يدرسون الجسم البشري بالتشريح

وتفشت هذه الخميرة الإيطالية في أقطار أوربا الكبرى فظهرت في ألمانيا نهضة دينية على يد « لوثر » . وظهرت نهضة علمية محضة في انجلترا على يد « بيكون » ثم « نيوطن » الذي ولد يوم وفاة جاليل ، كأن الأقدار تواطأت على أن تبقى السلسلة متصلة الحلقات . ثم ظهرت نهضة أدبية أخرى في فرنسا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر على يد فولتير وديدرو وروسو

إذا تأملت هـــذه النهضات جميعها ألفيتها حركات بشرية غايتها الاستقلال الذهني والاعتماد على التفكير البشري في مواجهة هذا الكون .

فإن لوثر يفصل النفس من حكم الكنيسة . ونيوطن يجرؤ على قياس الكواكب ووزن الأرض . ثم يأتى هؤلاء الأدباء الفرنسيون فيدعون إلى « بشرية » لاتزال فروعها تمتد فى الثقافة الحديثة ، كما لاتزال النزعة الآلية التى نزع إليها نيوطن واضحة فى النهضة الصناعية الآلية الحديثة

والنهضة الفرنسية تشبه فى مجموعها نهضة أدبية محضة . ولكنها فى آثارها وصميمها كانت أكبر من ذلك ، كانت دعوة حارة إلى تحرير الذهن البشرى والاكبار من شأنه والاعتماد عليه . وكان جميع أبطالها ينظرون إلى أوربا ، بل إلى الدنيا ، كأنها وطنهم الأصلى . وقل أن تجد نزعة حديثة فى أيامنا فى الأدب أو العلم أو الفلسفة لا ترجع إليهم إيحاء أو تعييناً . ولهذه النهضة ثلاثة أبطال بارزين هم :

١ - فولتير الذى دعا إلى الاعتماد على الذهن البشرى دون التقاليد لخدم الروح العلمى الحديث وفسح الميدان للتفكير الفلسفى الحر . ولم يكن عالماً ، ولكنه كان بعد نيوطن أعظم إنسان فى العالم

٢ - روسو الذى دعا إلى تحرير الذهن من التقاليد . ولكن دون الاعتماد على العقل وحده كما فعل فولتير . بل يعتمد روسو على القلب

٣ - ديدرو الذى شرع يجمع المعارف ويدونها فى موسوعة اعتماداً على أن معارف القدماء لاقيمة لها ، وعلى أن الذهن البشرى جدير بأن تجمع آثاره وتدون

وكانت نتيجة هـــذه النهضة ، التى يمكن أن توصف بأنها الحركة البشرية الثانية فى أوربا ، أن ثارت الثورة الكبرى فى فرنسا . وهى ثورة تجد فيها أثر فولتير فى الدعوة إلى الذهن والمنطق وأثر روسو

فى الحملة على التقاليد والظلم

وقد عاشت أوربا فى القرن التاسع عشر وهى تستظل بهذه النهضة الفرنسية فى ثقافتها أو نزعتها الثقافية . فإن روسو هو الذى حرك الأذهان إلى درس « الرجل الفطرى » حين قال بأن الطبيعة حسنة والاجتماع سيء . فكان بذلك سبباً لدرس الأثنولوجية والأنترءبولوجية والسيكلوجية والطبيعة . ولا شك فى أن البحث العلمى قد نقض آراءه فى أن الرجل الفطرى خير من الرجل المدنى . ولكن هذا لا يعنى أنه ليس الأساس لهذا البحث نفسه ، ثم لا ننسى هذه الثورة التى بعثها فى الآراء التعليمية وهى ثورة لم تنته بعد إلى نتيجتها

ومع أن فولتير قد بالغ فى حملته على الأديان فإن هذه الحملة نفسها كانت من الأسباب التى بعثت رجال الذهن على درس الأديان القديمة والحديثة والاهتداء إلى كشف كثير من الأسرار والعقائد التى انعقدت وتراكبت فى النفس الإنسانية . ومايسمى الأديان « المقارنة » إنما هو درس خصب يعزى إليه الفضل فيه

ولولا هذه الحركة البشرية الثانية لبقى الاستبداد السياسى مسلطاً على أوربا ، وكان يكون منه هذا الوليد الذى تراه مرافقاً له فى كل مكان وزمان وهو الاستبداد الذهنى فى الأدب والعلم . فإن الجامعة الحرة التى تدرس العلوم وتمارس الكشف العلمى لا يمكنها أن تعيش فى ظل الاستبداد . وهذه النهضة الفرنسية عند ما حطمت الاستبداد تناولته من جميع وجوهه وأطلقت الذهن من جميع قيوده وأوغلت فى هذا الانطلاق وارتطمت بعقبات أوقعتها فى جرائم ، ولكنها بعد كل ذلك

استقرت على الاعتراف بحرية الذهن فى التفكير . فجعلت الأدب والفلسفة موضوعاً منفصلا عن اللاهوت كما جعلت العلم ممكناً بل مندوباً إليه من كل إنسان

ولا نكاد نستطيع التمييز بين النهضة الإيطالية (القرن الخامس عشر) والنهضة الفرنسية (القرن الثامن عشر) فإنهما تنزعان نزعة بشرية واضحة ، ولكن النهضة الإيطالية تسير فى تردد وتعثر ومراقبة . أما النهضة الفرنسية فتجرؤ وتصادم وتتحدى . وبأى شىء تتحدى ؟

بالذهن البشرى الذى ليس فوقه سلطان سوى سلطان القلب أو سلطان الإنسانية

الحركة البشرية الثالثة

فى تحليل النهضة الأوربية الحاضرة ، بل فى تحليل أزمات أوربا الحاضرة ، نستطيع الاهتداء إلى البذور أو الجذور الأولى . ونستطيع أن نتبين الاتجاهات التى تتجه إليها فروع هذه الشجرة فى الوقت الحاضر

فقد عرفنا كيف نشأت النهضة فى إيطاليا بدرس القدماء والتنقيب عن مؤلفاتهم . وهؤلاء القدماء كانوا وثنيين قاطعتهم أوربا لما عمها الظلام قبل سنة ١٠٠٠ للميلاد . وكان الكشف عنهم تحريراً للذهن البشرى وتوسعة له فى الآفاق . وكان لوثر المصلح الدينى إحدى ثمرات هذه النهضة التى زادت على تحرير الذهن تحرير الضمير

ثم ظهرت النهضة الثانية فى فرنسا قبيل الثورة الفرنسية وكانت كفاحاً صريحاً للاستبداد بألوانه المختلفة . ويمكن أن يقال أنها كانت نهضة أدبية واجتماعية وسياسية ودينية

ثم جاءت النهضة الثالثة أو الحركة البشرية الثالثة فى منتصف القرن الماضى حين ظهر كتاب داروين « أصل الأنواع » سنة ١٨٥٩ ، فجعل التفكير فى الأصل والحال والمصير للإنسان تفكيراً بشرياً . وهنا يجب

أن نلتفت إلى سمات النهضة أو النهضات الإنجليزية . فإنها كانت فى الأغلب تنزع نحو العلم وليس نحو الدين أو الأدب . فقد ظهر فيها روجر بيكون قبل ٧٠٠ سنة فتنبأ بالميكانيات ، حتى الطائرات ، وذكر قيمة التجربة المتكررة كأنها الأساس الذى يجب أن تنبنى عليه المعارف . ثم جاء ~يه اللورد بيكون فى بداية القرن السادس عشر فوضع برنامجاً للنهضة العلمية. ثم بعد ذلك جاء نيوطن فصبغ الذهن صبغة ميكانية (آلية) . وهو الأصل فى هذه الأزمة الحاضرة ، لأنه هو الذى أوجد النزعة إلى اختراع الآلات ، هذه الآلات التى طردت وما زالت تطرد العمال من المصانع وتحدث العطل . وهذا العطل هو فى نظر العالم فراغ ونعمة، وهو فى نظر الجاهل فاقة ونقمة . ولكن رويداً رويداً سيعرف السياسيون أن الإنسان يمكنه أن يحيل على الحديد والنار ، أو على البترول والفحم والقوة الكهربائية، الكد والعناء للإنتاج. وأنه يمكنه أن يستمتع بالفراغ دون أن يشعر بهوان العطل

ولكن داروين أحدث نهضة جديدة تختلف من النهضة التى أحدثها نيوطن، وإن كانت كلتا النهضتين علمية . ولكن الأولى للميكانيات والثانية للبيولوجيات . الأولى تعالج الحديد وتؤثر بذلك فى مقدار الإنتاج من المحصولات الزراعية والإنتاج الصناعى . أما الثانية فتعالج ، أو سوف تعالج ، الجسم البشرى .لا بل الذهن البشرى. وموضوع كتاب داروين يتلخص فى أن الإنسان والحيوان يرجعان إلى أصل واحد . والموضوع يبدو بسيطاً لنا الآن . ولكن الحرب القلمية التى قامت بين رجال الدين وبين الداروينيين مدة أربعين سنة تقريباً فى جميع أنحاء أوربا

تدل على أن القرون الوسطى لم تكن قد ماتت حتى فى نهاية القرن الماضى ونحن الآن فى غمرة هـذه النهضة ، وفى أوربا الآن بدايات لجة للانتفاع بها . ولكنها مع لجاجتها تومىء إلى مستقبل حافل بالاحتمالات التى قد ترفع السلالات البشرية إلى مستويات من السعادة والكفاءة الصحية والاجتماعية لم نحلم بها من قبل

فما هو أن استفاض المذهب القائل بأن الإنسان والحيوان من أصل واحد حتى أخذت الأبحاث تنتشر عن مصيره فى المستقبل . لأن منطق النظرية فى الماضى يجب أن تكون له دلالته فى المستقبل . وما دام الإنسان كان حيواناً ثم ارتقى فلماذا يقف عن الارتقاء ، ولماذا لا ندرس الوسائل التى استخدمت لهذا الارتقاء فى الماضى وننتفع بها فى المستقبل؟

ومن هنا رأينا الخياليين الذين يدعون إلى « السوبرمان » أو الإنسان الذى يرجى أن نستنتجه فيكون منا كما نحن من القردة مثلا . كما رأينا العلميين الذين اخترعوا علماً أو فناً جديداً هو « اليوجنية » ، وهو البحث عن الوسائل السلبية والإيجابية التى تعمل لرقى الذريات القادمة وحمايتها من الأمراض وزيادة كفايتها

ومن هنا أيضاً نشأ الرأى القائل بالتعقيم ، فصارت الحكومة تعقم الرجل أو المرأة إذا اعتقدت أن بهما مرضاً جسمياً أو عصبياً قد يرثه نسلهما . بل بعض الحكومات استعملت التعقيم لحسم المنازعات الإجرامية فى بعض الأفراد الذين يثبت عليهم العجز عن السلوك الحسن

وواضح أن هـذا المنطق الجديد ، منطق ترقية النسل واليوجنية والتعقيم ، يرجع إلى نظرية التطور التى قال بها داروين . لأن هذه النظرية

جعلتنا ننظر نظراً « بشرياً » لمصير الإنسان . ونأخذ بيدنا معالجة ذهنه وجسمه ، وتخيل الأخيلة عنهما ، لا بل تعيين صفاتهما فى المستقبل . وقد أصبحنا نجرب التجربة السيكلوجية فى الكلب لكى نستنتج منها النتيجة فى تلميذ المدرسة . ونلقح الحيوان بالأمصال لكى نستخرج منها العقاقير للإنسان

ونحن من هذه « الحركة البشرية الثالثة » فى خلط واضطراب ، نتخبط فى الموازنة بين الوراثة والوسط ، أو نقسو بدعوى تنازع البقاء ، أو نكسب العصبية السياسية لوناً بيولوجياً ، أو نقف موقف الحيرة بين المادية والحيوية . وكل هذا لأننا ما زلنا فى غمرة هذه النهضة الجديدة

ولكننا عندما نؤرخ يجب ألا نتعامى عن التجانس فى هذه النهضات المتوالية فى أوربا منذ القرن الخامس عشر . فإنها جميعاً تتسم بسمة البشرية

اللغة والنهضة

كانت أوربا مدة القرون الوسطى تحت سيطرة الكنيسة . وكانت هذه السيطرة على أشدها فى النواحى الثقافية . فلم يكن أرسطوطاليس يقرأ أو يدرس إلا لخدمة الكنيسة ، ولم تكن الكتب تؤلف ، أو الأطفال يعلمون فى المدارس ، إلا لهذه الغاية . وكان للكنيسة لغة واحدة تعم أوربا كلها هى اللغة اللاتينية . وهى لغة لم يكن يتكلم بها الناس وإنما يكتبونها فقط

ولكن نزعة الاستقلال التى فشت فى النهضة ، وجعلت ميكافيلى يستقل بالسياسة ويفصلها من الكنيسة ، وجعلت جاليل يستقل بالفلك ويفصله من الكنيسة ، جعلت لوثر يفصل الدين نفسه من الكنيسة

ومن لوثر هذا نشأت القوميات الأوربية . فإنه حين ترجم الكتاب المقدس من اللاتينية إلى الألمانية جعل الدين المسيحى « قومياً » ، ورفع بذلك من شأن اللغات القومية التى لم تكن تكتب أو تدرس . ونزلت اللغة اللاتينية عن مكانتها وظهرت اللغات الوطنية . وأصبحت كل منها لغة الدين والعلم والأدب ، وهى الظاهرة ، المدروسة ، فى حين صارت

اللاتينية مغمورة مهملة

ولا يظن القارىء أن هذه المعركة بين اللغات القومية وبين لغة الدين اللاتينية كانت من المعارك الخفيفة . فإن بقاء هذه اللغة فى الجامعات الأوربية وإلزام طلبة المدارس الثانوية على تعلمها فى فرنسا وألمانيا وغيرهما ، بل بقاء التعابير والمصطلحات القانونية بألفاظها القديمة ، يدل على أنها كانت قوة كبيرة جداً . وأن الأمم الأوربية عندما تحدت الكنيسة ولغتها كانت تكافح أوعر المشاق فى حياتها الاجتماعية والدينية والثقافية . وإلى قبل مائة سنة كانت اللاتينية لغة التخاطب فى البرلمان الهنغارى

وقد يقال أن أوربا لم تكسب بترك اللاتينية التى كانت لغة الكتابة عند جميع المثقفين واعتماد كل منها على نفسها واتخاذها لغتها بدلا منها . فإن اللاتينية كانت تربط بينها وتجعلها أمة واحدة ديناً ولغة . ولكن المتأمل لتاريخ الحروب يجد أن هذا الاعتبار لاقيمة له . فإن الإنجليز حاربوا الأمريكيين وكلاهما ينتمى إلى لغة واحدة ودين واحد . ولم تكن الحروب فى القرون الوسطى حين كانت اللغة اللاتينية عامة أقل مما كانت عقب النهضة

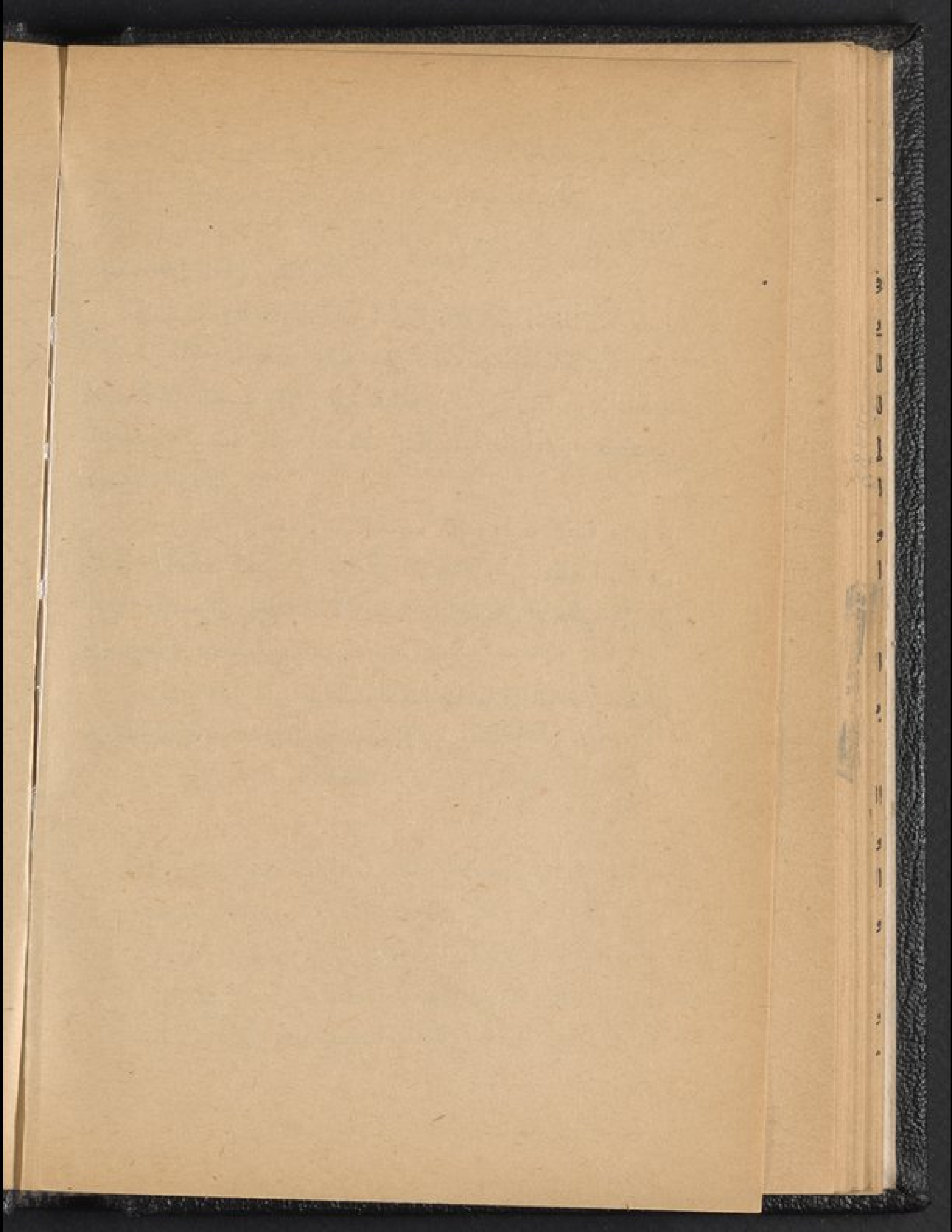
ونحن فى أيامنا قد اصطبغت أذهاننا بصبغة عالمية فصرنا ننظر نظرة الرجاء لمنظماتنا الدولية ونفكر فى إيجاد لغة عالمية . ولذلك لا نستطيع إلا الأسف على ضياع اللاتينية أوانحدارها إلى زوايا الجامعات والديورة والكنائس . ولكن الشعور بالنهضة هو نفسه شعور بالاستقلال . والناهضون الذين دعوا إلى العلم والأدب والتجديد فى الأخلاق والسياسة

شعروا بكرامة قومية تبعثهم على الإكبار من شأن اللغة القومية . واتجه نظرهم إلى المستقبل دون المبالاة للروابط التاريخية فى الماضى . ولو أن الأوربيين وضعوا الدين ولغة الدين فوق القومية لكانت أوربا الآن دولة واحدة عاصمتها روما

وقد لقيت أوربا صعوبات كبيرة فى كل دولة بلغتها استقلال ، وبقيت أكثر من مائة سنة عقب النهضة وهى تؤلف مؤلفاتها باللاتينية وتنقل إليها المؤلفات العربية والإغريقية القديمة . ولكن رويداً رويداً تغلبت الشخصية القومية حتى أصبحت لكل أمة كرامتها وكيانها واستقلالها ولغتها

ثم أخذ هذا الانفصال من الكنيسة الأوربية ، كنيسة روما ، يتفشى . وأخذت النفس الإنسانية فى الاستقلال ،حتى فصلت الدولة من الدين . وأصبح الدين بعد أن كان يسيطر مدة القرون الوسطى على كل شىء مفصولا من كل شىء

وقد يسوء هذا بعض القراء . ولكننا هنا نحاول أن نقرر الحقائق التى تبدو لنا كما نقرأها فى تاريخ النهضة الأوربية



كلماتنا العربية الأوربية

تقارضت الثقافات وتلاقحت وأخصبت ، ولم تنفصل أمة عن العالم وتحيا فى عزلة قط إلا إذا كانت أمـــة الصين . وعاد الضرر عليها هى وحدها ، وسار العالم فى موكب الارتقاء حتى إذا فتحت أبوابها بعد عزلتها كانت قد تخلفت عن هذا العالم نحو ألف سنة

وتقارض الثقافات يخصبها كما لو كانت جسما حياً يتلاقح مع جسم حى أجنبى . فتخرج منه السلالات الجديدة ، ثم على مدى التطور ، الأنوار الجديدة

وهذا الذى نسميه « القرون المظلمة » والذى نصف به السنين التى عاشت فيها أوربا فيما بين سنة ٥٠٠ وسنة ١١٠٠ ميلادية إنما كان مرجعه انعزال أوربا أيضاً حين انقطعت مواصلاتها مع العالم فى آسيا وأفريقيا ، وحين أصبحت القرية استكفائية فى اقتصادياتها . فلم تعد روما تعرف الهند ولم تعد أثينا تسمع عن الصين

وفى هذه القرون نفسها لم تكن الأمة العربية منعزلة . ولذلك كانت متمدنة . إذ كانت تعرف الصين وأسبانيا وما بينهما . وكانت تتقارض

الثقافة مع الهند والصين وايران . فنقلت صناعة الورق من الصين إلى أوربا . ونقلت الأرقام من الهند إلى أوربا أيضاً

ولولا الورق والأرقام لما كانت أوربا على علومها وصناعاتها الحاضرة

ومن قبل ذلك بنحو ألفى سنة أدخل الفينيقيون ، وهم أمة سامية مثل العرب ، حروفهم التى نقحوها من الخط الهيروغليفى المصرى إلى أوربا أيضاً

ونحن فى مصر ، فى الوقت الحاضر ، نحس أننا مظلومون مرهقون بالاستعمار الأوربى . ولذلك تنفر من الثقافة الأوربية

وليس شك أننا نعذر فى هذا الأساس. لأن أوربا تمارس الاستعمار بكل ما فيه من وحشية مع الأمة العربية وغير العربية . ولكن فى هذه الأمم الأوربية طوائف تعرف ولا تنكر أن الاستعمار جريمة . وقد كتبت عن الطلبة الذين احتفلوا فى باريس بيوم ٢١ فبراير ، وهو يوم نهوض الطلبة المصريين وانضمام العمال المصريين إليهم حين هبوا فى مظاهرة تستنكر الاستعمار وتطالب بالاستقلال إلى أن وصلوا إلى ميدان قصر النيل فخرج إليهم الجنود الانجليز فقتلوا منهم وجرحوا

وقد أصبح هذا اليوم عيداً عالمياً. هو رمز الكفاح من أجل الحرية والاستقلال ضد الأمم الاستعمارية

ان فى أوربا أناساً طيبين يستنكرون الاستعمار . وأنا هنا أحاول أن أبين للقراء ، وخاصة لأعضاء المجمع اللغوى المصرى الذين يكرهون الكلمات الأوربية ، ان لغتنا العربية تحتوى مئات الكلمات الأوربية .

كما أن اللغات الأوربية تحتوى كذلك مئات الكلمات العربية . واننا نحن والأوربيين يجب أن نجد فى هذه الظاهرة مجالا للتعاون والحب وميداناً للوحدة البشرية التى يهفو إليها كل إنسان إنسانى

* * *

لقد سبقت الأمم السابقة أوربا فى الحضارة . ولذلك لا تستغرب أن تكون كلمة أوربا سامية «أروب أى غروب» . لأن الفينيقيين كانوا يصفون الأقاليم الأوربية بأنها غرب بلادهم على الجانب الآخر من البحر المتوسط

ولولا أن انهزم هنى بال القرطجنى، وصهره أسدربال، فى محاربته للرومان لكانت أوربا الآن فى اشتراك لغوى مع الأمم السامية

وكما اقترض الأوربيون منا اقترضنا منهم

فقد كانت هناك دولة عربية حول دمشق أو بالقرب منها

هى دولة تدمر أو دولة زينب وهى التى يسميها العرب الزباء . فقد كانت هذه الدولة عربية يونانية . ومن هنا مئات الكلمات التى دخلت لغتنا قبل الإسلام . ومما يلاحظ أن كثيراً من هذه الكلمات اليونانية يدل على أن الطبقة السائدة ، طبقة الحاكمين ، كانت عربية يونانية

اعتبر مثلا كلمة السيف . فإنها يونانية . وقد كنت أشك فى ذلك وخاصة لأن السيف كان يوصف بأنه مهند أو هنداوانى ، أى من الهند التى اشتهرت بصهر المعادن ، ولكن اتضح لى أن السيف كلمة يونانية لفظاً ومعنى

ثم اعتبر الخطأ المشهور حين يقولون «خرجوا للصيد والقنص».

فإن المعاجم تفسر « القنص » بأنه هو الصيد . فكأنهم خرجوا للصيد والصيد . وهذا سخف

وإنما التفسير الصحيح أن قنص كلمة لاتينية بمعنى الكلبة « كانيس». وإذن تكون صحة الجملة « خرجوا للصيد بالقنص ».أى بالكلاب

وأذكر أنى كنت أقرأ كتاب الحيوان للجاحظ . فوجدته يقول ان العقاب تنكدر على الذئب وتنشب مخالبها فيه فتقطع ظهره . وأعجبتنى كلمة « انكدر » وبحثت عنها فلم أجد لها أصلا عربياً ثلاثياً . وإنما وجدت لها أصلا لاتينياً هو « انكيديرا » أى انقض عليه

ثم وجدت أيضاً أن هناك كلمات ثقافية عديدة تعود إلى اللاتينية أو اليونانية . مثل القلم ، والقرطاس ، واللغة ، والأدب والرقص ، والموسيقى ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والفلسفة ، والسفسطة ، والزخرفة

وكل هذه الكلمات ، عندما نضيفها إلى كلمات الصين ، تدل على أن الطبقة الحاكمة ، التى كانت تمارس رياضة الصيد ورياضة الفنون الجميلة ، إنما كانت يونانية لاتينية عربية . كما كان الشأن فى مصر عند دخول العرب حين كانت الطبقة الحاكمة يونانية رومانية مصرية

بل هناك ما يزيد هذا الرأى تأييداً . وهو أن كلمات القضاء والامتلاك يونانية لاتينية أيضاً

اعتبر كلمات : القانون، والقسط ، والقسطاس ، والقاضى ، والميراث ، والفدان ، والعقار . ثم الجرن أو الجران

فهى لا تزال تستعمل كما هى الآن فى أوربا . وربما يلتبس بعضها على القارىء العربى مثل كلمة الميراث . فإن المعاجم العربية تقول أن

الأصل هو الإرث . وهذا الأصل يونانى : «ارس » ويبدأ بحرف الهاء الصامتة . ومنه كلمة هيريدتية الإنجليزية الفرنسية

وأما كلمتا جرن وجران فعاميتان . ومعناهما الحبوب (جرين وجران)

وأما كلمة قاض فترجع إلى اللاتينية (جوديك اللاتينية)

وأما كلمتا قسط وقسطاس فهما بلفظهما يستعملان فى اللغات الأوربية

وواضح أن كلمات البناء مثل قصر ، وقرميد ، وبلاط ، وافريز ، وبرج ، هذه كلها لاتينية

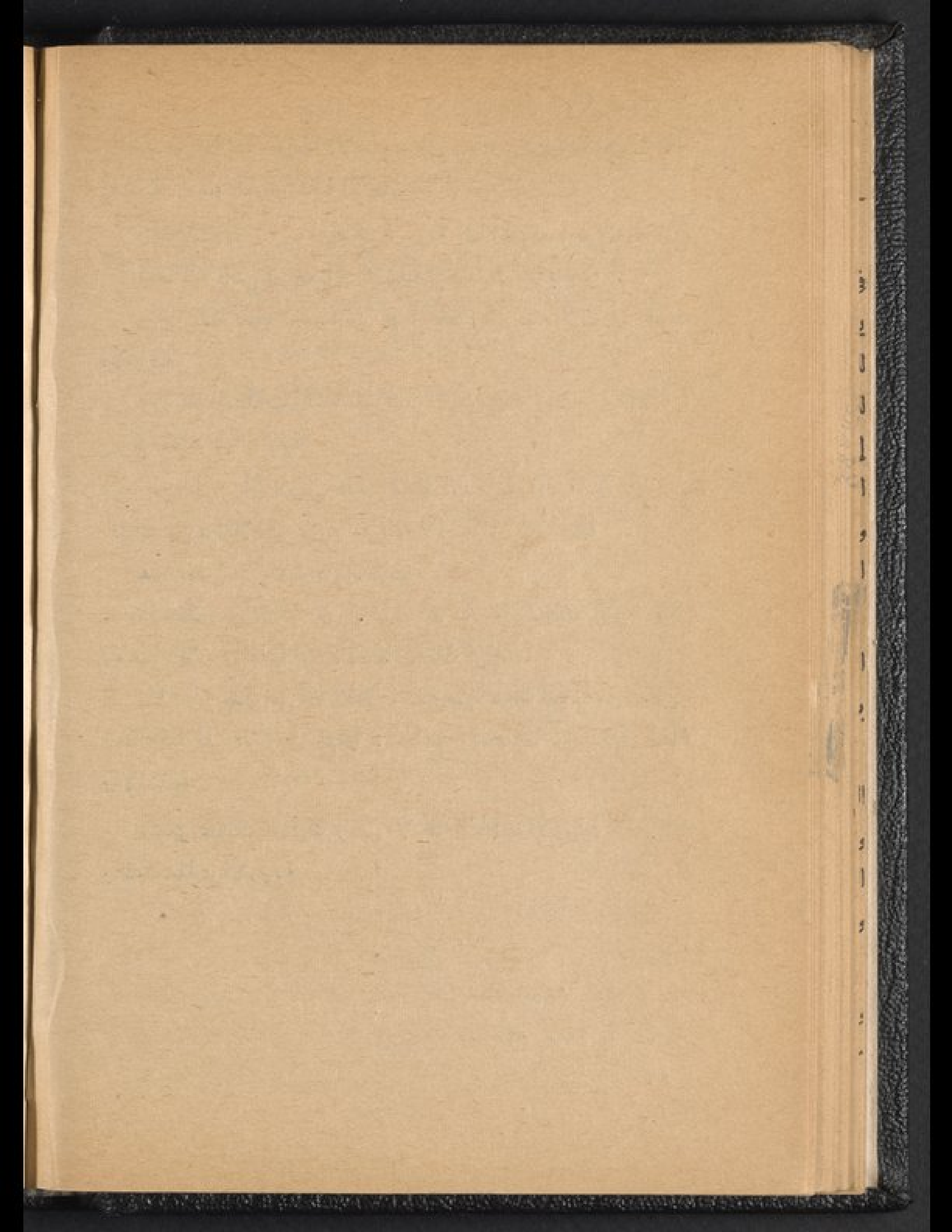
ومن الحسن أن ندرس هذه الدولة التدمرية لعله يكون فى ذلك كشف جديد لعلاقات عربية اغريقية لاتينية ما زلنا نجهلها

هذا بعض ما أخذته من الكلمات

ونستطيع ان نذكر من الكلمات العربية التى دخلت أوربا والتى تستعمل الآن فى لغاتها عشرة أضعاف ما ذكرنا هنا

وكل هذا يدل على أن الثقافات تتقارض بأخذ بعضها من بعض . وهذا التقارض هو ، فى النهاية ، تلاقح وإخصاب وزيادة فى التفاهم والإنسانية

وليس علينا لذلك أى ضرر من الأخذ بالكلمات الأوربية للمخترعات والمكتشفات الأوربية



قبل خمسمائة سنة

فى مثل هـــذه الأعوام ، منذ خمسمائة سنة ، دخل محمد الفاتح القسطنطينية وانتهى بذلك تاريخ الدولة الرومانية الشرقية . وقام مقامها وملأ مكانها العثمانيون ، أى الدولة العثمانية

وكان هذا كسباً عظيما للإنسانية

ونحن العرب الذين كابدنا من الحكم العثمانى مالا نحب أن نذكره ، قد لانسيغ هذا القول . ولكن حقائق التاريخ تنطق ، وحوادثه تشهد ، بأن دخول الأتراك فى أوربا ، قد بعث حوافز جديدة فى التطور العالمى

فهو أحد الأسباب الكبرى للنهضة الأوربية

وهو أحد الأسباب الكبرى لاكتشاف القارة الأمريكية

وليس هناك ما يمكن أن نأسف عليه فى زوال الدولة الرومانية الشرقية فى سنة ١٤٥٣ . فقد كانت تحيا فى ظلام القرون الوسطى . لم يبق عندها من ثقافة الإغريق القدماء سوى تلك الغيبيات السخيفة التى كان رهبانها يتراشقون بها ويقتتلون عليها ، إذ كانوا يحاولون أن يعرفوا العالم الآخر ويرسموا خارطته ويعينوا حدوده الجغرافية دون

أن يتكلفوا مشقة الوقوف على هذا العالم

كانوا فى انحلال يحيون فى مجتمع ينهض على أساس من العقائد، يدرسون الكتب القديمة فيحفظون كلماتها ولايكادون يفهمون معانيها. يعرفون الحرف ويجهلون الروح

كانوا أمة شائخة ،وكان الأتراك أمة ناشئة

* * *

وكان هؤلاء الأتراك ، على الرغم من سذاجتهم ، يقبلون على الدنيا ولكن فى غير استهتار أو انغماس . ولذلك لا نستغرب أن الإغريق فى القسطنطينية كانوا يصفون الرجل المستقيم الذى يوثق بكلمته بأنه « تركى »

وإذا كان الأتراك قد تغيروا بعد ذلك وانغمسوا فى الملاهى والملذات ، فإنما جاءتهم هذه العدوى من العادات الإغريقية السابقة . وكثيراً ما نجد المثال والعبرة فى الشعب القوى الفاتح يخضع لعادات الانحلال واللهو التى كان يمارسها الشعب المغلوب والتى كانت سبباً لهزيمته

ولو أن الدولة الإغريقية ، أى الرومانية الشرقية ، أتاح لها التاريخ أن تحيا إلى الآن لكان فى بقائها إلى عصرنا هذا امتداد الظلام وليس زيادة فى النور

* * *

نحن الأمة العربية لنا الحق فى القول بأن التاريخ قد ظلمنا باستيلاء الأتراك على أوطاننا ، لأن هذا الاستيلاء كان استعماراً بكل ما تحمل

هذه الكلمة من المعانى السيئة . بل هو كان يزيد على مساوىء الاستعمار العصرى بأنه لم يكن نيراً ، أى لم يكن يحسن إدارة الحكومة كى يحسن الاستغلال للأمم المحكومة

وقد كنا نحن فى مصر إلى سنة ١٥١٧ ، وهى السنة التى دخلت فيها بلادنا فى حوزة الاستعمار التركى ، من أعظم الأمم فى العالم حضارة . وكانت التجارة العالمية بين آسيا وبين أوربا تلتقى فى القاهرة والاسكندرية . وكنا على اتصال بأوربا . وهو اتصال كان جديراً بأن ينقل إلينا نهضتها . ولكن الاحتلال التركى حال دون ذلك . واحتجنا إلى قرابة ثلاثة قرون ، ونحن فى عزلة ، إلى أن جاءنا نابليون فشرعنا نستأنف اتصالنا بأوربا والحضارة العصرية

ثم لم نكسب من الأتراك لغة حية أو ثقافة ناهضة كما كسب الهنود مثلا من الإنجليز ، حين أخذوا بلغتهم وثقافتهم اللتين جعلتا منهم أمة عصرية

كنا نحن الأمة العربية فيما بين ١٧١٥ و ١٨٠٠ نعيش فى ظلام لا يختلف من ظلام القرون الوسطى ، بل ربما يزيد ، بسبب الاحتلال العثمانى

وإلى هنا تنتهى الزاوية السيئة من الاكتساح العثمانى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر

* * *

ولكن سقوط القسطنطينية ، قبل خمسمائة سنة ، فى أيدى الأتراك ، بعث هجرة اللغة الإغريقية إلى أوربا . فإن كثيرين من المثقفين الاغريق ،

أى الرومان الشرقيين ، وجدوا أن العيش فى ظل الأتراك لم يعد يلائمهم . فتركوا بلادهم ونزحوا إلى روما وباريس وغيرهما . ولم يكن الأوربيون يعرفون اللغة الإغريقية القديمة فتعلموها من هؤلاء النازحين . واتصلوا عن سبيلها بالفلاسفة والأدباء والعلميين من الإغريق القدماء . وأخصب هذا الاتصال أذهانهم التى لم تكن تعرف من الثقافة سوى تلك الثقافة الدينية التى لم تكن تتجاوز ديورة الرهبان والتى كان من المحرم فى كثير من الأحوال أن تتجاوز دراسة الكتب المقدسة

وسمى هذا الاتصال بالإغريق القدماء بالحركة البشرية . والمعنى هنا أن الثقافة الجديدة لا تعتمد على الإلهيات والكتب الدينية فقط وإنما تعتمد أيضاً على « البشر » . على المعارف ، وليس على العقائد

ومن هذه الحركة نشأ « العلم » . لأنه معارف وليس عقائد . وهو الذى قرر للأوربيين السيادة على غيرهم من الأمم التى كانت لاتزال تحيا بالعقائد دون المعارف

لقد بسطت اللغة الإغريقية القديمة ، التى حملها النازحون من الإغريق ، أمام الأوربيين ، أمة عجيبة هى أمة الاغريق القديمة . فرأى الأوربيون هنا شعباً وثنياً ولكنه لا يعرف التعصب الدينى . إذ كانت حرية التفكير مباحة إلى حدود بعيدة ، وكان المفكرون يكتبون ويخطبون كما لو كانوا لايخافون أية سلطة . وعرفوا من الاغريق معارف فلكية كان الأوربيون قد نسوها فأحيوها

ولكن هذه المعارف لم تكن كبيرة فى قيمتها أو مقدارها . وإنما الكبير الخطير الذى عرفه الأوربيون منها هو المنهج الذى أنتج هذه

المعارف . وهو منهج التفكير الحر

* * *

هذه الحركة البشرية ، وهذا التفكير الحر ، هما إحدى ثمرات الاكتساح التركى الذى أدى إلى نزوح اللغويين الاغريق من القسطنطينية إلى أوربا الغربية ، لأنهم أصبحوا قوة تحريرية للعقل الأوربى

وكان من أثر هذه القوة التحريرية أن فشا الاجتراء على اختراع النظريات العلمية . فشرع العلميون يقولون بأن الأرض كرة . واتجه الجغرافيون إلى فكرة الوصول إلى الهند عن طريق الغرب بدلا من طريق الشرق

وكان هنا حافز أيضاً على هذا التفكير من استيلاء الأتراك ، وقبل الأتراك السلاجقة ، لأنهم جميعاً منعوا اتصال الأوربيين بالهند وآسيا عن طريق مصر والبلاد العربية الأخرى

والحافز إلى اكتشاف أمريكا هو بالطبع حافز سلبى من الأتراك . كما كان الشأن أيضاً فى هجرة اللغويين الاغريق إلى أوربا الغربية عقب سقوط القسطنطينية بدخول محمد الفاتح

ولكن النتائج كانت بعيدة الأثر :

١ ـ حرية الفكر والنظرة العلمية فى أوربا

٢ ـ اكتشاف أمريكا ونزوح الأوربيين إليها

ومن هذا الوقت إلى الآن والأوربيون ، أو بالأحرى الغربيون ، يسودون العالم

* * *

كان الأتراك من حيث لا يقصدون ، سبباً للنهضة فى أوربا

ولكن لنا الحق فى أن نسأل هنا :

لماذا كان الأتراك فى القرن الخامس عشر ، عندما فتحوا القسطنطينية ، رمزاً للشرف والقوة ، حتى كان الإغريق حين يحب أن يطرى أحد إخوانه من الاغريق ، يقول أنه « تركى » . . ثم لماذا انهاروا حتى صاروا فى السنين الأخيرة التى سبقت نهضة أتاتورك يوصفون بالضعف والتأخر والرجعية والاستكانة ؟

أعتقد أن السبب واضح . وهو أن الأتراك بعد أن عملوا ، من حيث لايدرون على إخراج أوربا من القرون الوسطى إلى العصر الحديث ، وقعوا هم أنفسهم فى القرون الوسطى

إذ ما هى القرون الوسطى ؟. أى ما دلالتها ؟

هى التقيد بالنصوص التى فى الكتب الموروثة دون مباشرة الطبيعة بتسليط العقل عليها واستخراج المعارف منها

هى سيادة العقائد على المعارف ، والتليد على الطريف

هى الاكتفاء بالثقافة الدينية دون الثقافة المدنية

هى ثيوقراطية الدولة ، أى الدولة الدينية دون الدولة المدنية

وكل هذا يؤدى إلى سيادة الرجعية ، أى الرجوع بالشعب فى عاداته وأسلوب عيشه وتفكيره إلى ما كان عليه أسلافه قبل ألف أو ألفى سنة

ومعنى هذا : الجمود والوقوف عن التطور

وهذا ما نجت منه أوربا فى القرن الخامس عشر بفضل الاكتساح

التركى . وهذا هو ما وقع فيه الأتراك أنفسهم وبقوا فى هاويته إلى أن جاء أتاتورك العظيم فنهض بالشعب وأخرجه إلى القرن العشرين ، إلى النهضة

* * *

هذه القرون الوسطى ، التى اصطلح المؤرخون على أنها انتهت بدخول الأتراك فى القسطنطينية فى ١٤٥٣ أى منذ خمسمائة سنة ، كانت بالطبع تجد حوافز أخرى لافتتاح عصر النهضة

إننا ، نحن الأمة العربية ، نسمع ونقرأ كثيراً عن النهضة . ولكن هل ندرى دلالتها أو هل ندرى شروطها ؟

هل نحيا حياتنا العربية الحاضرة فى نهضة أم فى قرون وسطى ؟

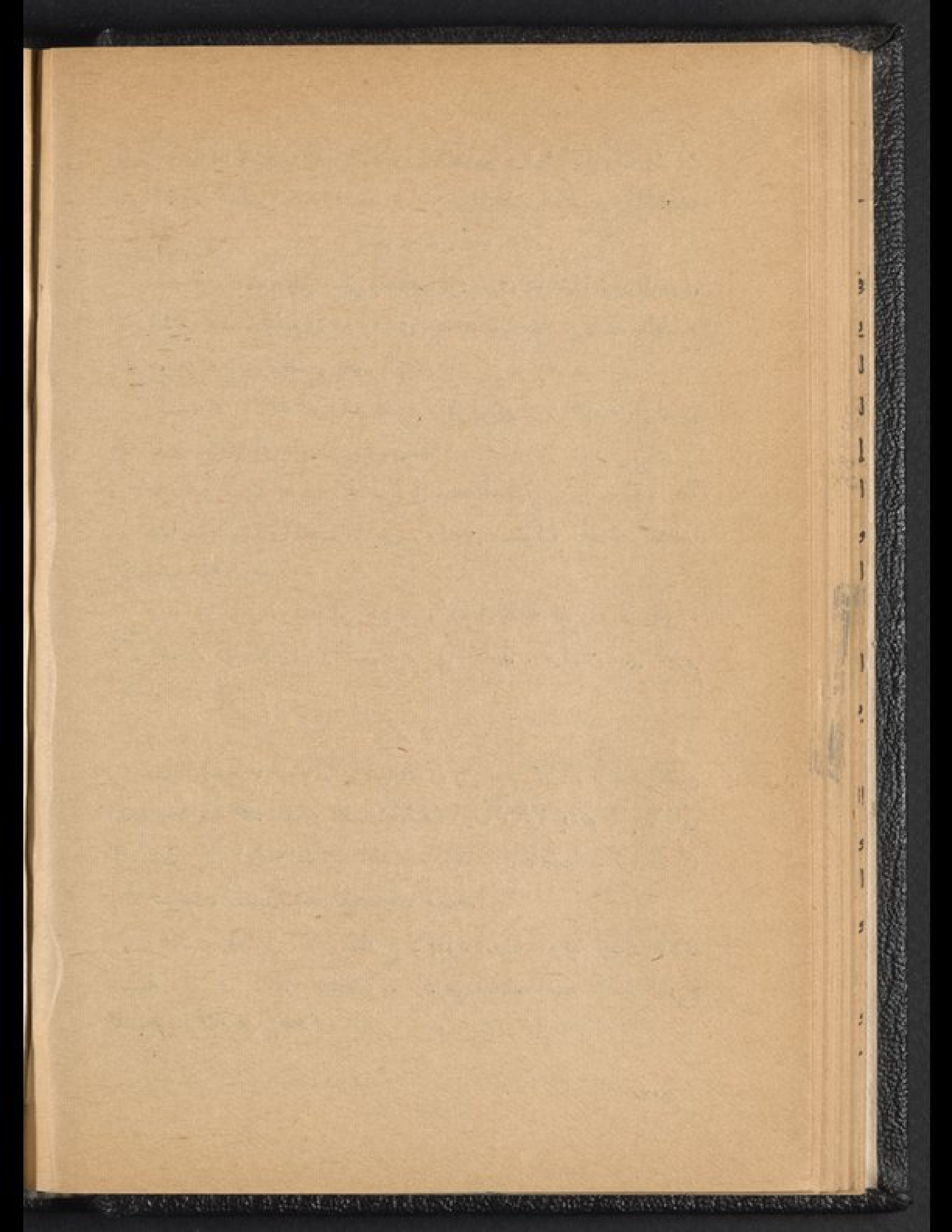
هذا هو السؤال المتعب الممض . ولكن مسئولية المفكر تقتضيه أن يجيب عليه فى صراحة

وجوابى : اننا مازلنا إلى حد بعيد نحيا فى ثقافة القرون الوسطى ، نؤثر العقائد على المعارف والقديم على الجديد . ولكن نور الفجر الجديد قد بزغ

* * *

ما زال إخواننا اليونانيون يتشاءمون من يوم الثلاثاء لأنه هو اليوم الذى دخل فيه محمد الفاتح القسطنطينية . وما زالوا يتغنون بالأغانى التى تصبو إلى الامبراطورية القديمة . وما زال عامتهم يذكرون أن « أيا صوفيا » كانت كنيسة ثم صارت مسجداً

ولكنهم مخطئون . لأن التاريخ لا يعود . وأيا صوفيا ليست الآن كنيسة وليست كذلك مسجداً . إذ هى متحف يجمع تحف التاريخ المسيحى والتاريخ الإسلامى



طبيعة الحضارة الأوربية

كلمتا أوربى وغربى لا تعنيان فى عقولنا العصرية دلالة جغرافية فقط ، إذ هما تحملان أيضاً ما يشبه الدلالة القديمة لكلمة « هيلين » . فإن هــذه الكلمة كانت تعنى فى الأصل الشعب الإغريق ، ولكن عندما تفشت حضارة الاغريق ، وسادت ثقافتهم ، صار لكلمة هيلين معنى النزعة والفلسفة وأسلوب الحياة . ولذلك كان المصرى أو العربى أو المراكشى يعد نفسه هيلينياً إذا كان ينزع النزعة الاغريقية فى هذه الأشياء

وهذا هو الشأن فى أيامنا فى كلمة أوربى أو غربى . فإن الأمريكيين غربيون . وكذلك يوجد فى أقطار الشرق غربيون من العرب والهنود والصينيين قد آمنوا بالنزعات الأوربيـــة فى الأدب والفن والفلسفة ، وأخذوا بعادات الأوربيين فى العيش ، وبالنظم الدستورية والمدنية فى القوانين : الحكم البرلمانى ، والمساواة بين الجنسين ، والنظرة الموضوعية لهذه الدنيا ، والاحساس الاجتماعى فى مسئولية الفرد

والحضارة الأوربية تتغلب وتسود أينما وجدت فى هذا العالم .

ولا يمكن أمة أن تحيا إذا خالفتها . ونعنى بالحياة هنا حياة القوة والعلم والثراء

حتى اليابان ، هـــذه الأمة الآسيوية العتيقة ، لم تنهض وتبلغ مستواها العالمى قبل الحرب الأخيرة إلا بعد أن أخذت بأصول الحضارة الأوربية

وليس « نهرو » زعيم الهند العظيم سوى رجل أوربى يتكلم باللغة الهندوكية . ولا أستطيع أن أتصور نهضة عصرية لأمة شرقية ما لم تقم على المبادىء الأوربية للحرية والمساواة والدستور مع النظرة العلمية الموضوعية للكون

وهنا سؤال : ما هو الأساس أو الأسس التى تبنى عليها الحضارة ، ثم الثقافة ، الأوربية ؟

ليس الأوربيون أصلح الناس للإجابة على هذا السؤال. ذلك لأنهم لم يروا غير حضارتهم وثقافتهم،أى أنهم يجهلون المقارنة التى تعد الأساس الأول للنقد المثمر والفهم الناضج

واعتقادى أننا نحن الغرباء عن هذه الحضارة وعن هذه الثقافة ، الأوربيتين ، أقدر على فهمهما . لأننا نستطيع المقارنة

ولقد قرأت كتاباً للزعيم « الروحى » للفاشية أو النازية الألمانية فى هذا الموضوع . وهو « هوستون ستيوارت تشمبرلين » الذى يقول أن هناك ثلاثة أسس لأوربا العصرية.وهى منطق الاغريق أو فلسفتهم، ثم نظام الرومان أى القوانين الرومانية ، وأخيراً التراث المسيحى الأخلاق

ولست أنكر أن لأوربا شيئاً من هذه التقاليد ، وأن لها بعض الأثر فى توجيهها . ولكن هذا الأثر ضعيف جداً . وقد انتهى المؤلف بعد أن شرح هذه الأسس الثلاثة إلى أن التعصب العنصرى ضرورى لأوربا . وأعجب الامبراطور فيلهلم بهذا الكتاب ، واشترى آلاف النسخ منه ، ووزعه بالمجان على موظفى الحكومة الألمانية . والتعصب العنصرى هو ، فى النهاية ، سيادة الألمان على جميع البشر

وكان « هتلر » لذلك من المعجبين به أيضاً . وقد عمل به . ولقى النتيجة المحتومة لهذا المذهب ، وهى تألب الدنيا عليه

واعتقادى أن تشمبرلين وهتلر كانا من أبعد الناس عن فهم الروح الأوربى العنصرى : روح الحرية والمساواة والدستور، والنظر الموضوعى، أى العلمى ، للدنيا ناساً وأشياء

وأنا أفهم شيئاً واحداً ، واحداً ليس له ثان ، هو أن الأوربيين سادوا فى الماضى ، ويسودون فى الحاضر ، لأنهم قد أخذوا بالصناعات الآلية

جعلوا الآلات تعمل بدلا من الأيدى . والحديد والنار يعملان بدلا من القوة البشرية

وكل ما نعرفه من الأخلاق الأوربية والعلوم الأوربية والحرية والمساواة والدستور ، هذه كلها هى ثمرات هذا الوسط الصناعى الجديد الذى لا يزيد تاريخه على مائة وسبعين سنة

كانت أوربا إلى سنة ١٧٨٠ زراعية مثلنا . متأخرة مثلنا . ليس لمرأة فيها حقوق وليس للعامل فيها رأى . بل ليس له عقل غير هذا

العقل الزراعى الذى يستسلم للخرافات . وكانت فقيرة مثلنا . بل كان كثير من عمالها الزراعيين « عبيداً » يعملون مكرهين فى النظم الإقطاعية السائدة وقتئذ

ثم جاءت الصناعة ، وهى فحم وحديد : وظهرت المصانع التى أحالت المواد الخامة إلى أشياء مصنوعة . والفرق كبير فى الثمن بين الاثنين . فإن قنطار القطن الذى يباع خاماً بعشرين جنيهاً يباع مصنوعاً منسوجاً بأكثر من مائة جنيه . وطن النحاس أو الحديد أو النيكل الذى يباع بخمسين جنيها وهو خام قد يبلغ ثمنه وهو مصنوع ألف جنيه

اعتبر صناعات الساعات فى سويسرا . فإن المواد الخامة فى الساعة قد لا تزيد على خمسين قرشاً ولكنها ، أى الساعة ، تباع بخمسة جنيهات

هذا من ناحية الثراء فى الأمم الصناعية ، فإن الاوربيين أثرياء لأنهم صناعيون

أما من ناحية الثقافة فإن العلم التجريبى يغلب عليها . لأن المصنع يحتاج إلى العمل للتجربة . وليس العكس . أى ليس العلم هو الذى أوجد الصناعات ، وإنما الصناعات هى التى احتاجت إلى العلم وأرصدت العلماء للبحث . وأصبحت النظرة العلمية عامة تكافح النظرة التقليدية التى كانت سائدة فى العهد الزراعى السابق

وليس فى عالمنا شىء يحرر العقل من الخرافات ومن التفسيرات التقليدية للأشياء المادية التى هى ثمرة العلم الذى يطلب تجربة اليد إلى جانب تفكير العقل

ومن هنا هذه المادية الاوربية التى تغلب على تفكير الأوربيين ،

هذه المادية التى هى ثمرة العلم الذى جلبته الصناعة والمصانع

وكرامة العامل الصناعى واستقلاله ، ثم أيضاً حريته الفكرية ثم المساواة بين الجنسين ، ثم احترام الدستور والقوانين ، كل هذا من ثمرات الوسط الصناعى ، وسط المدينة التى تنأى عن وخامة القرية . وسط العلم التجريبى

ولا أنكر أن لهذا الوسط عيوباً . ولكن ما أتفهها إلى جانب هذه القوة العظمى التى يتسلط عليها الانسان باستخدام الحديد والنار فى زيادة ثرائه ورفاهيته ، وامتداد ثقافته إلى النظرة الاستيعابية للكون. وأخيراً هذه الحرية ، الاجتماعية والفكرية ، التى لم تعرفها أمة زراعية، أى أمة شرقية ، تعيش بالزراعة

* * *

وهنا سؤال : لماذا يؤدى الوسط الريفى أو القروى إلى البلادة والاستسلام فى حين يؤدى الوسط الصناعى إلى الذكاء والاستطلاع ؟

الجواب : لأن الزراعة تمارس بالتقاليد وليس بالعلم . وهذا على الرغم من أنها يجب أن تكون علمية . والفلاح يعيش فى قرية منعزلة لا تصطدم بأحداث العالم . والمباراة فيها محدودة وليست كالمباراة فى المدن ، حيث الآفاق للذهن والقلب أرحب وأبعد . ثم أن تسلط الطبيعة بجوها المتقلب على نمو النباتات يجعل الفلاح على إحساس دائم بأنه رهن الحظ . ودرجة القراءة فى القرية معدومة أو محدودة ، وكذلك التساؤل والاستطلاع

أما الوسط الصناعى فيكسب الصانع إحساس السيطرة والقوة . إذ

ليس للحظ فى الصناعة شأن . فهو يدير الآلة أو يصهر المعدن وهو يعرف النتيجة قبل أن يشرع فى العمل . وهو يكسب من هذه الممارسة إحساساً بالمنطق فضلا عن القوة ، ولا يمكنه أن يؤمن إلا بالتجربة العلمية كما أنه كذلك يمارس النظرة الموضوعية فى حياته الاجتماعية والسياسية

ثم هو يعيش فى مدينة تتحمل أعصابه منها صدمات متوالية من الأحداث المنبهة . لأنها ، أى المدينة ، على اتصال صحفى بكوكب الأرض كله . وهو يكسب النظرة العالمية لهذا السبب فى حين يقنع عامل الزراعة بالنظرة القروية

ثم عامل الصناعة يرى ويقارن كثيراً ، وليس شىء يحرك الذكاء مثل المقارنة . فهو يرى الحاكم والمحكوم ، والبذخ والفاقة ، والعلم والجهل ، وكل هذا بعيد عن العامل فى الزراعة

ولكلمات الحرية والمساواة والدستور والبرلمان والسياسة معان عميقة مقلقة عند العامل فى المدينة ، أى فى الصناعة . ولكنها لا تقلق عامل الزراعة ، ولذلك لا تنبهه

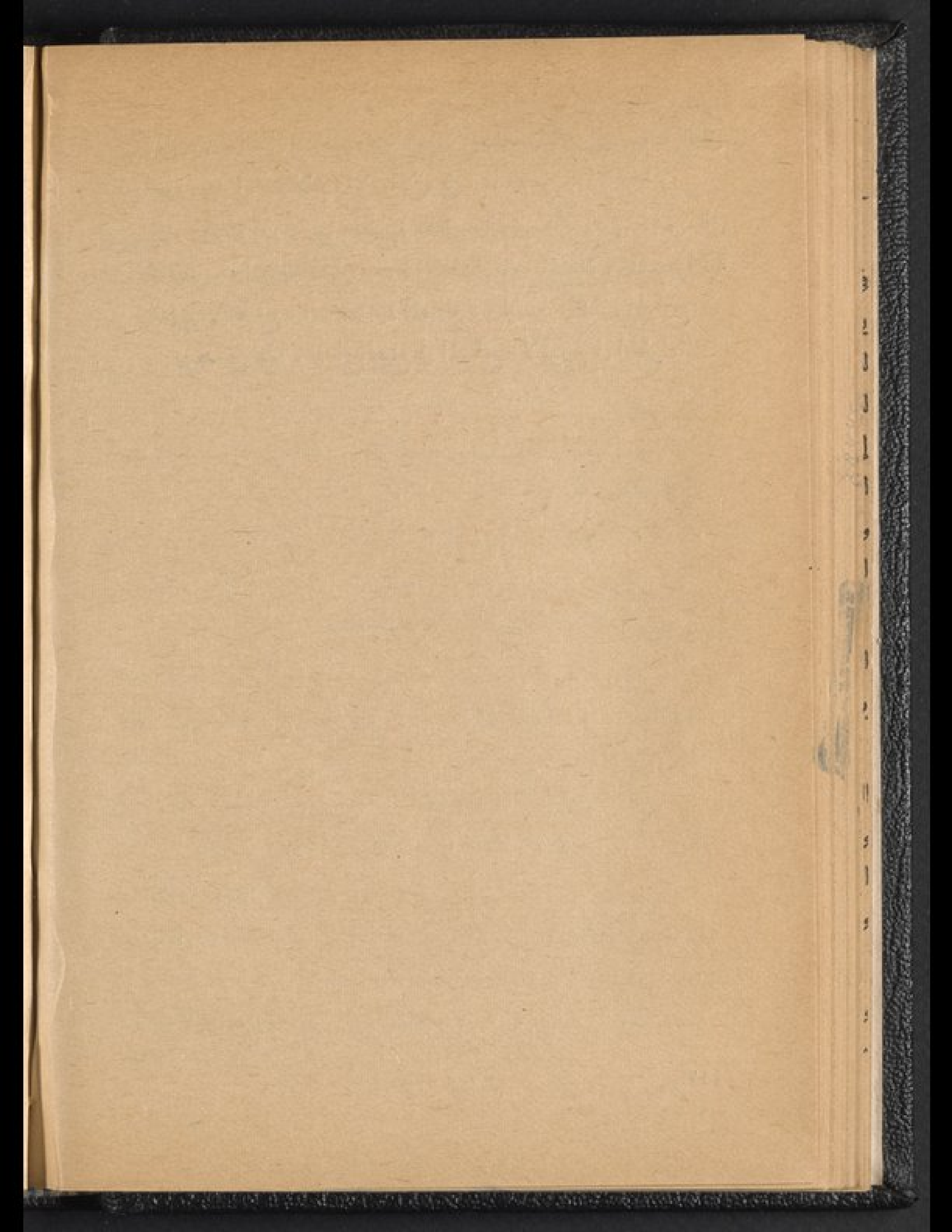
ويمكن أن نقول أن الديمقراطية كلمة تحمل معنى خطيراً عند عامل الصناعة ، ولكنها لا تكاد تحمل أى معنى عند عامل الزراعة

ونستطيع أن نقول أن الوسط الزراعى يبعث على القناعة والطمأنينة فى نفوس الفلاحين . وهذا صحيح . ولكن إلى جانب القناعة والطمأنينة نجد الذهول والركود . ثم نستطيع أن نقول أن الوسط الصناعى ، وسط المدينة ، يبعث على القلق والتوتر ، بل ربما الجنون والانتحار ،

فى نفوس العمال فى المصانع وهذا صحيح أيضاً . ولكن إلى جانب القلق والتوتر نجد الاستطلاع والاستقلال بل ربما العبقرية والاختراع

وحضارة أوربا هى حضارة القلق والتوتر وأمراض النفس التى لا تحصى . ولكنها أيضاً حضارة الاستطلاع والاستقلال والديمقراطية والعلم والاختراع ، أى حضارة المصانع ، وليست حضارة المزارع

وبعد كل هذا ، المدافع تصنع فى المصانع ولا تزرع فى الحقول



الثقافة تؤدى إلى الحضارة

أحسن ما يقال فى إيضاح الفرق بين الثقافة والحضارة أن الثقافة هى ما نتكون به . والحضارة هى ما نعمل به

الثقافة علوم وفنون وفلسفات وعادات وتقاليد واتجاهات ، تكسبنا جميعها مزاجاً معيناً تتجه به فى سيرتنا ومعاشنا ونؤسس بها مجتمعاً يتفق ومبادىء هذه المعارف ولا يتنافر معها . أما الحضارة فهى ما نعمل به من أدوات سواء أكانت هذه الأدوات حسية مثل آنية الطبخ أو مواد البناء ، أو آلات أو مصنوعات ، أم كانت معنوية مثل المؤسسات الاجتماعية المختلفة كالحكومة والمجلس النيابى والمجلس البلدى ونظام الإدارة وجباية الضرائب ونحو ذلك

والثقافة تسبق الحضارة وتؤدى إليها ، لأنها هى بمثابة الفكرة والحضارة بمثابة المادة . وتلك القاعدة السيكولوجية التى نسلم بها جميعاً ، وهى أن التعرف يؤدى إلى التأثر ، والتأثر يؤدى إلى التحرك ، هذه القاعدة تنطبق أيضاً على الثقافة والحضارة . فنحن نتعرف الأشياء ، ثم نتأثر بهذا التعرف فنتحرك به إلى عمل ما . وهذا العمل قد يكون

اختراع آلة أو اكتشاف عقار أو إيجاد نظام . وهذه هي الحضارة .
ويمكن أن نقول أن الحضارة الصناعية القائمة التي تمثل في المصانع الكبرى للنسيج أو لمركبات النقل ، أو للبواخر والبوارج ، أو للطائرات ـ هذه المصانع إنما هي الثقافة الرياضية والفيزيائية قد تجمدت في حضارة الآلات والحديد والفولاذ . ولا يمكن لأمة أن تعيش في حضارة صناعية مالم تحذق الثقافة العلمية التي أدت إليها . وهي إذا أهملت هذه الثقافة العلمية فانها سرعان ما تعود إلى الحضارة الزراعية التي تنتكس إليها كل أمة حين تتقهقر ثقافتها

وكل تحرك اجتماعي يحتاج إلى تحرك ثقافي ، وليس هناك غير الأمم الزراعية التي تستطيع أن تعيش على ثقافة راكدة لاتتحرك ولا تتباين ولاتتنوع . لأن المجتمع المتحرك يحتاج إلى ثقافة متحركة متباينة متنوعة .
ومن هنا ضرورة الانقلاب الثقافي لإيجاد انقلاب في الحضارة . وهذا هو ما فعلته الصين واليابان وتركيا وإيران ، فانها حين أرادت أن تأخذ بالحضارة العصرية ، أي حضارة الصناعات والآلات اضطرت إلى أن تأخذ قبل ذلك بثقافة العلوم العصرية . وليس من المستطاع أن تأخذ أمة بالحضارة العصرية إذا كانت تعيش على ثقافة قديمة لم تستطع في تاريخها الماضي إلا أن تثمر الحضارة الزراعية فقط ، لأن كل حضارة تحتاج إلى ثقافة تنشئها ثم تفسرها وتلائمها وتماشيها . وإلا حدث التزعزع الاجتماعي الذي ينشأ من التنافر بين وسط حضاري جديد ووسط ثقافي قديم . وأقل النتائج التي يثمرها هذا التنافر أن الفرد الذي يعيش فيه ويعانيه لايؤمن بتقاليده وعقائده وتراث آبائه من أخلاق .

ثم هو مع ذلك لم يتهيأ بثقافة جديدة تزوده بميزات جديدة من العقائد والأخلاق ، وهو هنا يعيش بلا ضمير

ولعل مما يزيد بصيرتنا بهذا الموضوع تواتر الاختبار التاريخى بشمول الفوضى الأخلاقية أيام الثورات والانقلابات ، لأن الثورة أو الانقلاب تعنى تغيراً فى الثقافة وتحركاً فى الاجتماع ، وكلاهما يعنى تغيراً فى الضمير . وليس من الميسور على كل إنسان أن يتغير ضميره بالسرعة التى تقتضيها الثورة ، لأنه حين يترك تقاليده وميزان الفضائل والرذائل الذى ورثه يحتاج إلى أن يستبدل بهما تقاليد جديدة وميزاناً جديداً . لكن الثورة لا تسعفه بهما ، فهو لذلك يعيش سنوات فى فوضى أخلاقية

وقد قلنا بأن الثقافة تعنى العلوم والفنون والعقائد والعادات ولكنا لم نهمل أن الأهم من هذا كله اللغة التى يتفاهم بها الشعب ، لأن أعظم تراث اجتماعى لأية أمة هو لغتها . وهى أعظم مؤسساتها وأقدرها على خدمتها . وإذا استعصت هذه اللغة على الفهم ، أو إذا صعب تعلمها، أو إذا عجزت عن الأداء العصرى واستيعاب العلوم والفنون العصرية ، فإن كل شىء بعد ذلك يستعصى على الأمة مالم تنبذ لغتها وتتخذ لغة أجنبية . ولكن هذا العمل ليس من الهينات ، لأن الأمة تحتاج إلى مئات السنين لكى تستطيع نسيان لغتها واتخاذ لغة أخرى . وهى فى هذا الاستبدال تتعرض لألوان من الخطر لا تحصى ، وقد تنحدر إلى هوات لا تنهض منها

وقد قيل أن الكلمات هى بذور الأفكار ، ولكننا ننسى أن الكلمات أيضاً هى بذور الأعمال . فإن ألفاظ الحرية والمساواة والإخاء

التى ترددت على أقلام الكتاب الفرنسيين فى القرن الثامن عشر كانت بذوراً لأفكار وأعمال لما نفته منها حتى الآن . وقد تكهرب العالم سنة ١٩١٩ بـ « كلمات » ألقاها عليه الرئيس ولسون بشأن حقوق الأمم الصغيرة وتقرير المصير . ونشأت من هذه الكلمات « عصبة الأمم » . وقس على ذلك

فقاعدة الثقافة هى اللغة . ولا يمكن بتاتاً إيجاد ثقافة راقية بلغة منحطة ولا ثقافة متحركة بلغة جامدة . لأن تحرك الثقافة ورقيها يجب أن يستتبعا رقى اللغة وتحركها ، أى تطور ألفاظها القديمة وتلبسها بالمعانى الجديدة ، أو اصطناع ألفاظ جديدة أجنبية أو وطنية . ومن هنا هذه الظاهرة التى يوضحها لنا التاريخ ، وهى أنه عندما وجدت الأمم الأوربية أن اللغة اللاتينية التى كانت وسيلتها الثقافية مدة القرون الوسطى قد أصبحت لا تتفاعل مع المجتمع الأوربى فى نهضته الجديدة ولا تسايره تأثراً وتأثيراً عمدت إلى نبذها واتخاذ لغاتها العامية. وهذا أيضاً هو تفسير الانقلاب الثقافى الجديد فى الصين . إذ أنها بقيت آلاف السنين وهى تعتمد على لغة أو كتابة قديمة حجبت عنها الحضارة العصرية ، فلما استقر رأيها على الأخذ بهذه الحضارة عمدت إلى لغتها فاستحدثت منها طرازاً جديداً للأداء يتفق وضرورات هذه الحضارة

ومهما كتبنا فإننا لن نبالغ فى قيمة اللغة للأمة ، نعنى اللغة العصرية التى تقبل التطور وتقدر على الاستيعاب للفنون والعلوم واصطناع الألفاظ الجديدة ، اللغة التى لا يجد فيها المفكر حرجاً يضيق عليه تفكيره ويضلله باتخاذ ألفاظ لا تؤدى أغراضه ، أو تمنعه من أن يتناول بعض الموضوعات العلمية أو الفنية أو الفلسفية لأنه يجد عجزاً فى اللغة عن أداء معانيها

الديمقراطية : نظام المجتمع

كلمة الديمقراطية تعنى حكم الشعب . أى أن الشعب يحكم نفسه

وكان الإغريق القدماء يعرفون الحكم الديمقراطى فى المدن فقط . وكانت وقتئذ مدناً صغيرة

فلما زالت دولة الإغريق لم نعد نجد هذا الحكم الديمقراطى إلا منذ مائة سنة أو أقل فى أوربا وأمريكا . وذلك لظروف يسهل إيضاحها . فإن الشعب الذى يحكم نفسه يحتاج إلى أن يكون كله ، أو على الأقل الناخبون فيه ، متعلمين ، وإذا عرفنا أن التعليم لم يصر إلزامياً فى انجلترا مثلا إلا فى ١٨٧٠ فإننا نستطيع أن نفهم أن كلمة الديمقراطية كانت من الكلمات التى تدل على معنى المستقبل وليس للحاضر الراهن . أى أنها كانت أملا يرجى حين يعم التعليم

ولكننا فى الوقت الحاضر تذكر هذا النظام فى الحكومة وليس بمعناه الكامل المرجو ، ولكن بما وصل إليه من الاقتراب من هذا المعنى الكامل المرجو

ففى سويسرا نجد الديمقراطية على أعلاها فى الأمم الغربيـــة .

ولا يستطيع سويسرى أن يعقل أن أحد زعماء وطنه يمكنه إيجاد نظام نازى أو فاشى . لأن هذا النظام يفرض طغيان طبقة تزعم أنها ممتازة على الشعب فى الكفاية والأمانة للحكم . وهذا مالايفهمه السويسريون ، لأنهم كلهم سواء فى التعليم ، وعلى مقدار حسن من الرخاء ، ولهم حريات مكفولة بالدستور . بل مكفولة بما هو فوق الدستور ، وهو الإحساس العام بالحقوق والواجبات

* * *

كان الحكم فى العصور القديمة ملكياً ، بل كان الملك عند المصريين والرومان بعد الآلهة . ولما جاء الاسكندر المقدونى إلى مصر فى القرن الرابع قبل الميلاد ، جعله الكهنة ابناً للرب آمون . وواضح أنه حين يكون الملك إلهاً فإن الشعب لا يمكن أن يكون شيئاً ، بل أن الثورة على الملك عندئذ تعد كفراً وإلحاداً

ثم نجد فى القرون الوسطى ملوكاً ، ليسوا من الآلهة ، ولكنهم يحكمون كما لو كانوا منها . وكان النظام الإقطاعى يؤيدهم فى حكمهم المطلق الذى لم يكن يحد منه سوى قوة الأمراء والنبلاء . وكثيراً ما نقرأ عن « الحق الإلهى للملوك » فى الثورات التى قامت بها انجلترا وفرنسا وإيطاليا . وهــذا الحق هو التراث الفرعونى الامبراطورى من مصر وروما

فلما ظهرت الطبقات المتوسطة ، المؤلفة من الصناعيين والتجاريين والزراعيين ، وحطمت النظم الإقطاعية وألغت الرق الزراعى وهدمت العروش التى كان يزعم متبوؤوها هــذا الحق الإلهى ، شرعت

الديمقراطية فى الظهور

شرعت فى الظهور على أيدى رجال الطبقات المتوسطة . وكانت الدائرة محدودة والمعنى مقصوراً على هذه الطبقات . أما العمال فلم يكن لهم من الشأن ما يبرزهم إلى الوجود السياسى

ولكن منذ منتصف القرن الماضى شرع العمال فى أوربا يحسون الوجدان السياسى ويطالبون بالتمثيل النيابى . ومنذ ذلك الوقت والدائرة تتسع رويداً رويداً إلى الشعب كله

* * *

وهذا الذى قلت ينطوى، على معنى أكبر مما تفيده كلمة الديمقراطية . فإن الديمقراطية نظام فى المجتمع قبل أن تكون نظاماً فى الحكم . بل هى نظام فى الحكم لأنها نتيجة لنظام معين فى المجتمع

ذلك أن النظام الإقطاعى لا يمكن أن يهيىء للحكم الديمقراطى

بل كذلك نظام الزراعة الإقطاعى أو شبه الإقطاعى الذى مازلنا نجده فى كثير من الأمم العربية لا يمكن أن يهيىء للحكم الديمقراطى . إذ كيف نطالب الفلاحين فى قراهم النائية ، فى فقرهم المدقع ، فى اعتمادهم الأعمى على مالك الأرض الثرى ، وأخيراً فى جهلهم التام بشئون الشعب وأميتهم الكاملة فى المعانى السياسية والاقتصادية ، كيف نطالبهم بأن يكون لهم رأى فى نظام الحكم وبرامج السياسة ومقدار الضرائب وحقوق الصحافة وحرية الخطابة ؟

إن هذا محال . وقد كان محالا فى أوربا إلى أن نقلت الفلاحين من مزارعهم إلى المصانع أو إلى أن منحت فلاحيها حقوق عمال

المصانع مثل تأليف النقابات

ذلك أن عمال المصانع يتكتلون . وقدعاشون فى المدن . وتعلموا . وطمحوا . فصاروا يطلبون التمثيل السياسى وصار لهم نواب فى البرلمانات . وأصبحت كلمة الديمقراطية كلمة حية تروح وتغدو على ألسنتهم ، فتكسب الغافل تنبهاً ، والذليل كرامة ، والذاهل وجداناً

ونحن نعرف مثلا أن الملك فؤاد ألغى الدستور فى ١٩٣٠ ، فلم نثر عليه ، بل أنه وجد من ساستنا وصحفيينا من عاونه على ارتكاب هذه الجريمة العظمى ، لسبب واحد ، هو أن الوجدان السياسى لم يكن عاماً فى الأمة . ولو كان عاماً قوياً لشنق الملك فؤاد وجميع من عاونه من الوزراء والساسة والصحفيين على إلغاء الدستور

ولا أنكر هنا يد الاستعمار المدمرة التى كانت تعين المستبدين على تحطيمنا وتفتيت قوانا فى مشاغبات ومصارعات داخلية حتى لانستطيع مواجهة مشكلتنا الكبرى وهى الاستعمار . ولكن قوة الاستعمار كانت تضعف إزاء الوجدان السياسى فى الأمة ... لو أنه كان موجوداً

* * *

وثم مثال آخر . فإن مجلس الشيوخ الذى كان مؤلفاً من الباشوات والبكوات وأعوانهم رفض منح الفلاحين حق تأليف النقابات ، وكذلك فعل مع الخدم

ولم يثر عليه أحد للسبب نفسه . وهو أن الوجدان السياسى بين الفلاحين والخدم كان معدوماً أو كالمعدوم . إذ كانوا فى فقرهم وأميتهم بعيدين عن العناية أو الاهتمام بحقوقهم السياسية

ولذلك يجب أن نعترف بأن كلمة الديمقراطية كانت فى السنين الثلاثين الماضية أمنية فى مصر ، ولم تكن قط تدل على نظام فى الحكم

بل إن ساستنا أنفسهم كانوا إقطاعيين فى إحساسهم ، وان لم يكونوا كذلك فى مجتمعهم . فكان سلوكهم سلوك الإقطاعيين من النبلاء والأمراء ، وكانوا جميعاً يتطلعون إلى :

شراء عزبة

إقتناء سيارة

قصر فى الزمالك

قصر فى الإسكندرية

إدارة الشركات

فصوص من اللؤلؤ والماس . . إلخ . .

أفكار إقطاعية بعيدة كل البعد عن روح العصر ، وهى أبعد عن روح الديمقراطية

* * *

إن فى أوربا الديمقراطية وزراء يقصدون إلى وزاراتهم على الأتوبيس . وقد رأيت انا بنفسى ، بعينى ، كليمنصو ، وهو رئيس وزارة ، ينتظر الأوتوبيس ويركبه

إحساس ديمقراطى لايمكن أن نتصوره عند وزرائنا السابقين أصحاب الضياع

بل كذلك نجد الفرق العظيم بيننا وبين أوربا حين نقارن بين أصغر المهن وأعلاها . فنى أقطار أوربا على اختلافها لايزيد مرتب الوزير

لىء خمسة أو ستة أمثال مرتب الكناس

الكناس والوزير هما محك الديمقراطية . فإذا تقاربا فى الأجر كانت الديمقراطية . وإذا تباعدا فى الأجر كان النظام الإقطاعى فى الروح . وإن لم يكن فى الواقع والقانون

إن الثورة التى قنا بها فى مصر هى ثورة الطبقة المتوسطة

ثورة الرجل « اللى فى حاله »

الرجل الذى يمد رجليه على قد لحافه

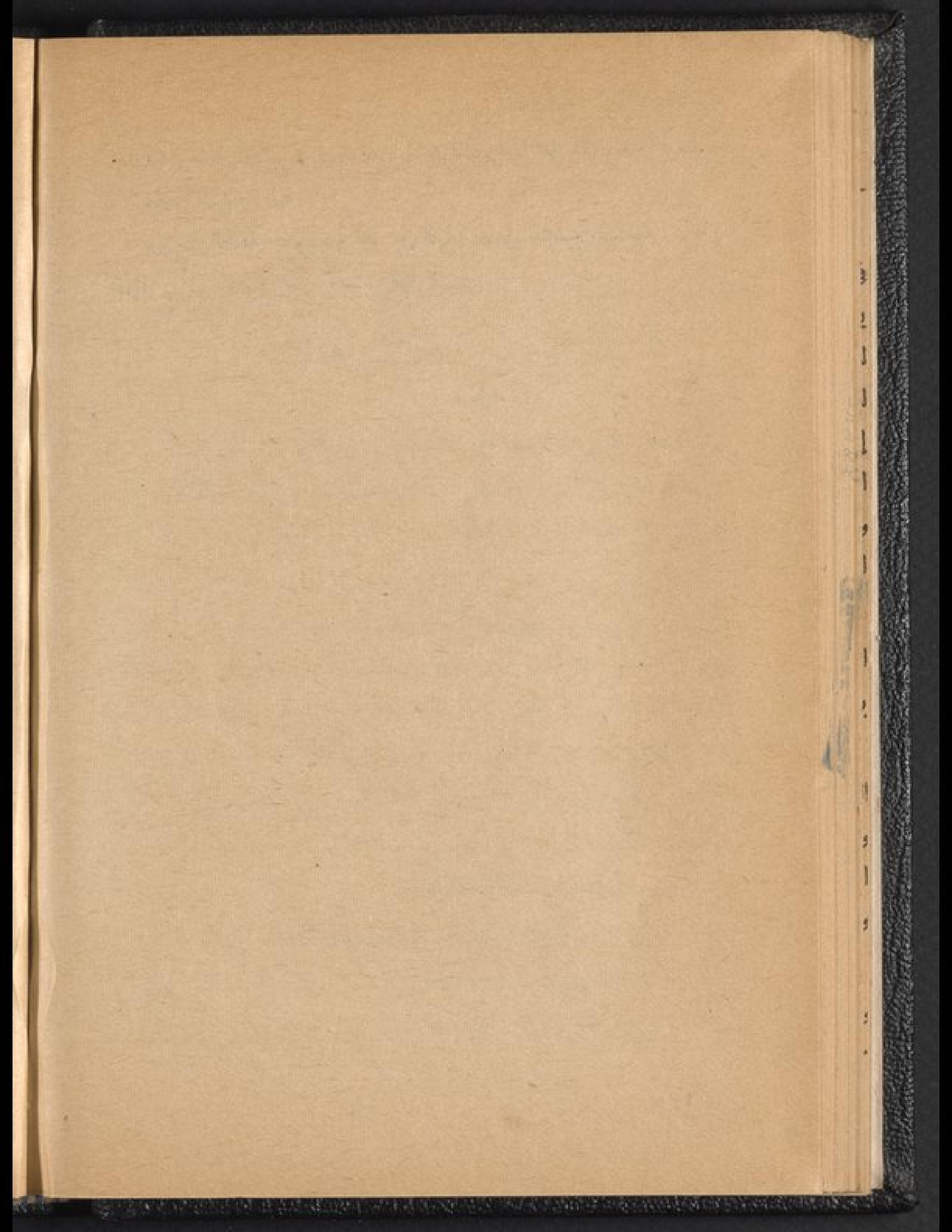
وهذا الرجل ليس من العمال . وكذلك ليس هو من النبلاء والأمراء ، واخوانهم الباشوات والبكوات

ولكنه يحس قرابته من العمال إذ هو يعمل مثلهم ، وإن يكن عمله هنا بعقله وليس بيديه . فهو عامل يتعب ويعرق . ويعرف أنه إذا لم يتعب ويعرق فإنه لن يجد لقمة العيش . ومن هنا التفات هذا الرجل ، رجل الطبقة المتوسطة ، إلى العمال ، إلى الفلاحين والخدم واعترافه لهم بحق تأليف النقابات . وسعيه لأن يكفل لهم العيش الشريف بتحديد الأجور والإيجارات ومحاولته إلغاء الرواسب الإقطاعية فى امتلاك الأرض . بل كذلك محاولته تطهير الإدارة الحكومية حتى ترعى الضعيف والفقير ولا تقتصر على خدمة الأثرياء والأقوياء

يجب أن نساعد هذا الرجل ، رجل الطبقة المتوسطة ، على أن يغرس فى بلادنا هذه الشجرة ، شجرة الديمقراطية . والفرصة الحاضرة هى خير الفرص لتحقيق ذلك . فإن لجنة الدستور تستطيع أن ترى رؤيا

جديدة لوطننا بأن تهيء للمجتمع الجديد الذى يحيا على المصانع ويأخذ بالأخلاق الديمقراطية

ورجل الطبقة المتوسطة هو فى النهاية عامل تقتضيه مصلحته رعاية العمال سواء أكانوا عمال اليد أم عمال الذهن



إنى أخاف على وطنى . .

التاريخ لا يعيد نفسه . ولو فعل لدار حول نفسه . فلا يكون هناك ارتقاء إلى أعلى أو تقدم إلى الأمام ، وإنما تكون هناك حركة دائرية تنتهى إلى حيث ابتدأت . وإنما التاريخ يعيد المشكلات التى تشبه المشكلات القديمة ويقدم لها الحلول التى تشبه أو لا تشبه الحلول القديمة، ولكنها لا تطابقها إذ هى تجرى على مستوى أعلى. أى أن التاريخ يدور، ولكن فى حركة لولبية ، كلما انتهى من دورة صعد درجة إلى أعلى وقام بدورة أخرى

ونحن فى هذه الأيام نعانى مشكلة بل مشكلات فلسفية كتلك التى عانتها أوربا فى نهضتها الأولى فى إيطاليا ونهضتها الثانية فى فرنسا

وقد ظهر بيننا ، نحن المصريين ، ناهضون مثل قاسم أمين الذى دعا إلى تحرير المرأة . ومثل محمد عبده الذى قال : انه يعتقد أن كلمة «زندقة» ليست عربية وأنها فى الأغلب محرفة عن «هرطقة» اللاتينية . وأنه ليس فى الإسلام زندقة

وكلاهما عمل لتحريرنا . الأول حرر المرأة من الحجاب . والثانى

حرر أفكارنا من القيود ، ونحن فى حاجة إلى أن نذكرهما هذه الأيام

ماذا كان يقول محمد عبده فى ظروفنا الحاضرة ؟

ماذا كان يقول قاسم أمين فى هذا الخبر الذى ذكرته الصحف وهو أن حكومة لبنان قد قررت تعيين ثلاث سيدات فى المجلس البلدى، وتعيين سيدتين للقضاء ؟

ولكن فوق محمد عبده ، وقاسم أمين . أحس كأن ذكرى فولتير تصدم رأسى كما لو كانت حجراً يشجه

«ايكرازيه لانفام» . إسحقوا الخزى . صيحة مدوية صاح بها فولتير قبل أكثر من مائتى سنة

أى خزى هذا ؟ هو خزى الاضطهاد لمن يخالفوننا فى الرأى ...

اننا فى أزمة فلسفية من حيث أسلوب الحياة ، ومن حيث نظام المجتمع الذى يجب أن نعيش فيه . ونحن أيضا فى تنازع بقاء مع أمم كبيرة وصغيرة

هل نحيا أحراراً نفكر كما نشاء ، وكما يهدينا إليه تفكيرنا ، أم نتقيد بقيود الماضى . وإلى متى تبقى هذه القيود ؟ ألف سنة قادمة أم مليون سنة قادمة ؟ ثم هل نحيا فى مجتمع انفصالى مختلط ، يختلط فيه الجنسان ، وتعمل فيه المرأة أعمال الرجال أم نحرم المرأة حقها الإنسانى فلا تكون نائبة فى البرلمان أو وزيرة أو سفيرة أو قاضية ؟

هذه الأزمة الفلسفية التى نعانيها ، أى فلسفة العيش ، قد وجدت أخيراً من التفكير والتعبير فى موضوع الأدب والعلم ما حملنا على المناقشة التى تشبه الملاكمة . والذى حملنى على كتابة ما تقدم وعلى الكلمات التالية

هو فولتير . ذلك أن هذا الأديب العظيم الذى علم أوربا ، وعمم حرية التفكير ، سئل ذات مرة : من هو أعظم رجل فى العالم ؟ فأجاب : هو اسحق نيوتن

ولم يكن اسحق نيوتن من رجال الأدب الذين استطاعوا أن يعرفوا أن رجل العلم أيام النهضة خير من رجل الأدب وأنفع منه . وبكلمة أخرى ، لو أن فولتير كان قد سئل أيهما أنفع لأبناء فرنسا كى يدرسوه وينقلوا مؤلفاته إلى لغتهم . . . « شكسبير » مؤلف روميو وجوليت أم « اسحق نيوتن » صاحب مبدأ الجاذبية ؟ لقال فوراً : أنه اسحق نيوتن

وقد درس فولتير شكسبير وكان يتقن اللغة الانجليزية التى تعلمها فى انجلترا . ولكنه كان يفهم أن الحضارة علم وصناعة . ولذلك آثر اسحق نيوتن عليه لأنه فهم من العلم أنه ارتقاء وحضارة

وهذا هو ما حملنى فى أول المناقشة الخاصة بالمفاضلة بين العلم والأدب على أن أقول بأفضلية العلم . لأننا فى نهضتنا الحاضرة نحتاج إليه ، إذ هو وسيلة التمدن . ولا تمدن ولا قوة بلا علم . واننا نستطيع أن نؤجل «الترف الذهنى» أو الأدب كما يفهمه بعضنا ، و «ماكبث» و «الملك لير» بلا ضرر . وعندنا ما يكفينا من الترف الذهنى ، الحسن والفاسد ، فى أبى تمام وابن الرومى والمتنبى وأبى نواس . وإذا كان لا بد من الأدب فليكن أدب الكفاح والرسالة ، وليس هذا أدب شكسبير

ان القراء العرب يحتاجون إلى موسوعة مثل الموسوعة التى كان يشرف على تحريرها « ديدرو » وكان يشترك فيها فولتير والتى هيأت الشعب للثورة الفرنسية الكبرى

وهذه الموسوعة هى ٩٩ فى المائة علوم وصناعات

والقراء العرب يحتاجون إلى التنوير الغربى لعقولهم الشرقية . ولو قرأوا كتاب الأمهات لبريفولد وكذلك كتاب العلم فى التاريخ لبرنال، لتغيرت الدنيا أمامهم

ما هى نهضتنا ؟

ما هى القيم التى ننشدها ؟

ما هى الرؤيا التى نحب أن نراها لبلادنا بعد عشر سنوات أو مائة سنة ؟

هل هى رؤيا الحجاب للمرأة ؟

هل هى رؤيا أدب أبى نواس وروميو وجولييت ؟

هل هى رؤيا القيود والحدود للفكر البشرى ؟ هذا يجاز فيه التفكير وهذا لا يجاز فيه ؟

إن الذهن العربى فى حاجة إلى أن يتغير . أى إلى أن يتطور

ان قلب أفريقيا الأسود يتغير فى عصرنا . حتى أن الناهضين فى مستعمرات بلجيكا وفرنسا وبريطانيا يسمون أنفسهم « متطورين » . وهم يفهمون من هذا الوصف أنهم قد تغيروا وأنهم دائبون فى التغير والبعد عن الجمود

ولو أننا كنا متطورين لما كان يمكن أن يفكر أحد منا فى محاكمة الشيخ بخيت ، لأن له رأياً خالف الكثرة . ولو كنا متطورين لما كانت هذه المناقشة بشأن المفاضلة بين العلم والأدب . ولو كنا متطورين لكان لنا نساء قاضيات ونائبات . .

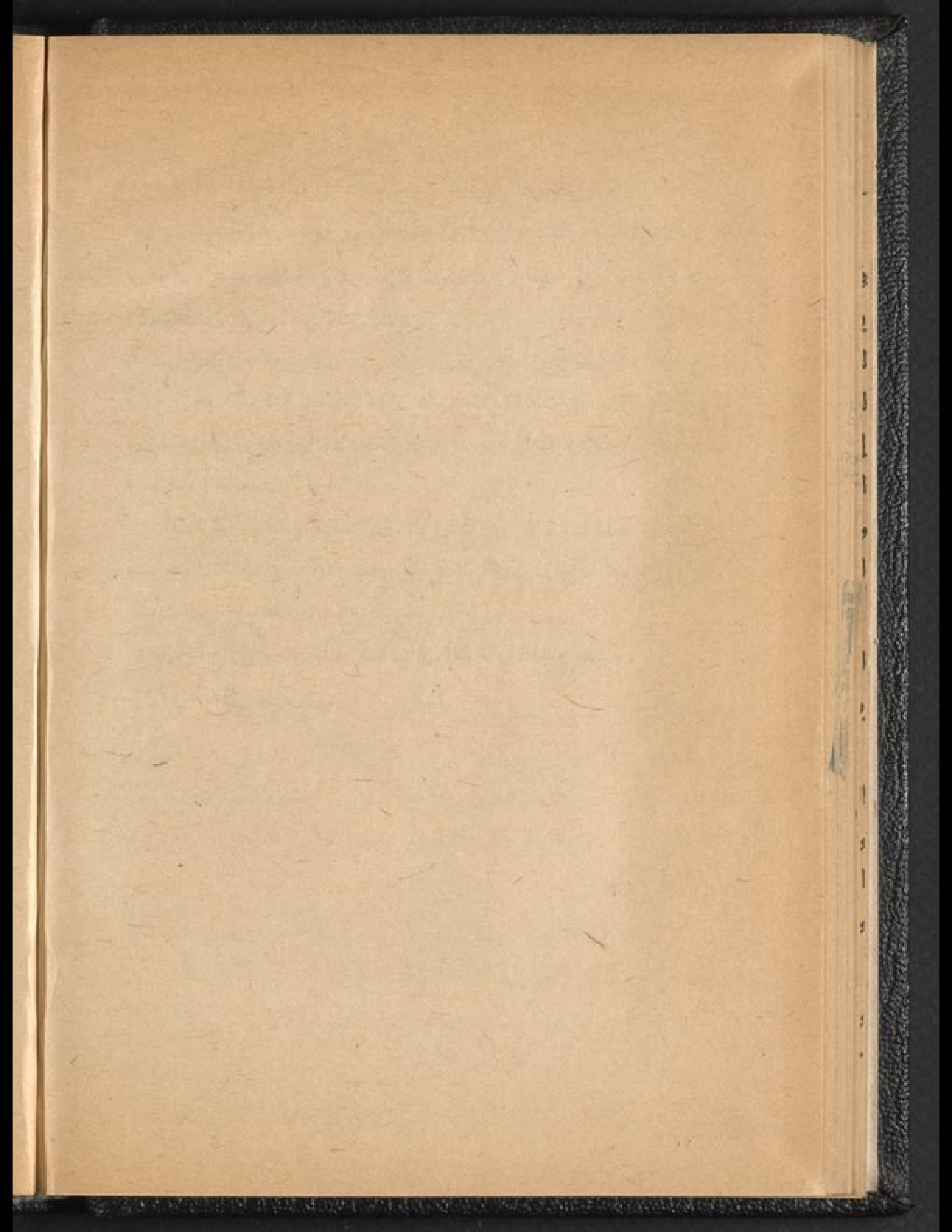
ولو أن فكرة التطور كانت تسود العقلية العربية ، ولو أن كتب العلم ، من داروين ، وداروين خطير هنا ، إلى برنال إلى فريزر إلى بريفولد ، كانت منشورة تقرأ وتناقش ، لما وصلنا إلى هذه الحال الآسيفة من جمود ، بل تعفن الذهن

وأى شىء أكبر دلالة على تعفن الذهن من أن تؤلف لأبى نواس ، وعنه ، نحو عشرة كتب. ثم نقول بعد ذاك أننا لسنا فى حاجة إلى العلم ؟ وإنما نحن فى حاجة إلى الأدب ؟ وأى أدب ؟ أدب روميو وجوليت ومكبيث وهامليت

أذكروا يا ناس هذا الدق لأبوابنا فى غزة . اننا لا نحتاج إلى مسرحيات شكسبير ، ولا نحتاج إلى تقييد الفكر ، وإنما نحتاج إلى إنشاء كليات لدروس العلوم

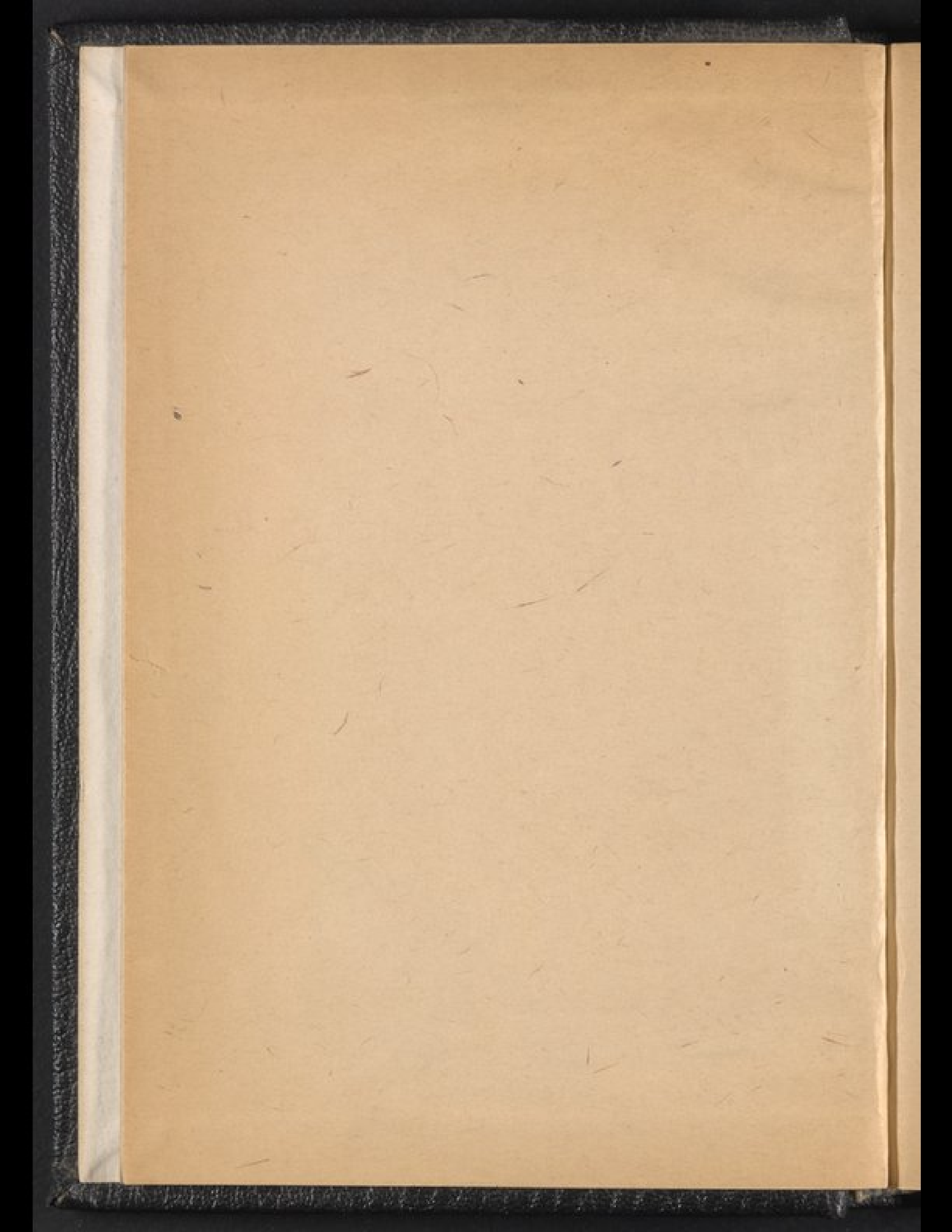
ونحتاج إلى ترجمة مائة كتاب فى العلوم والمناهج العلمية . .

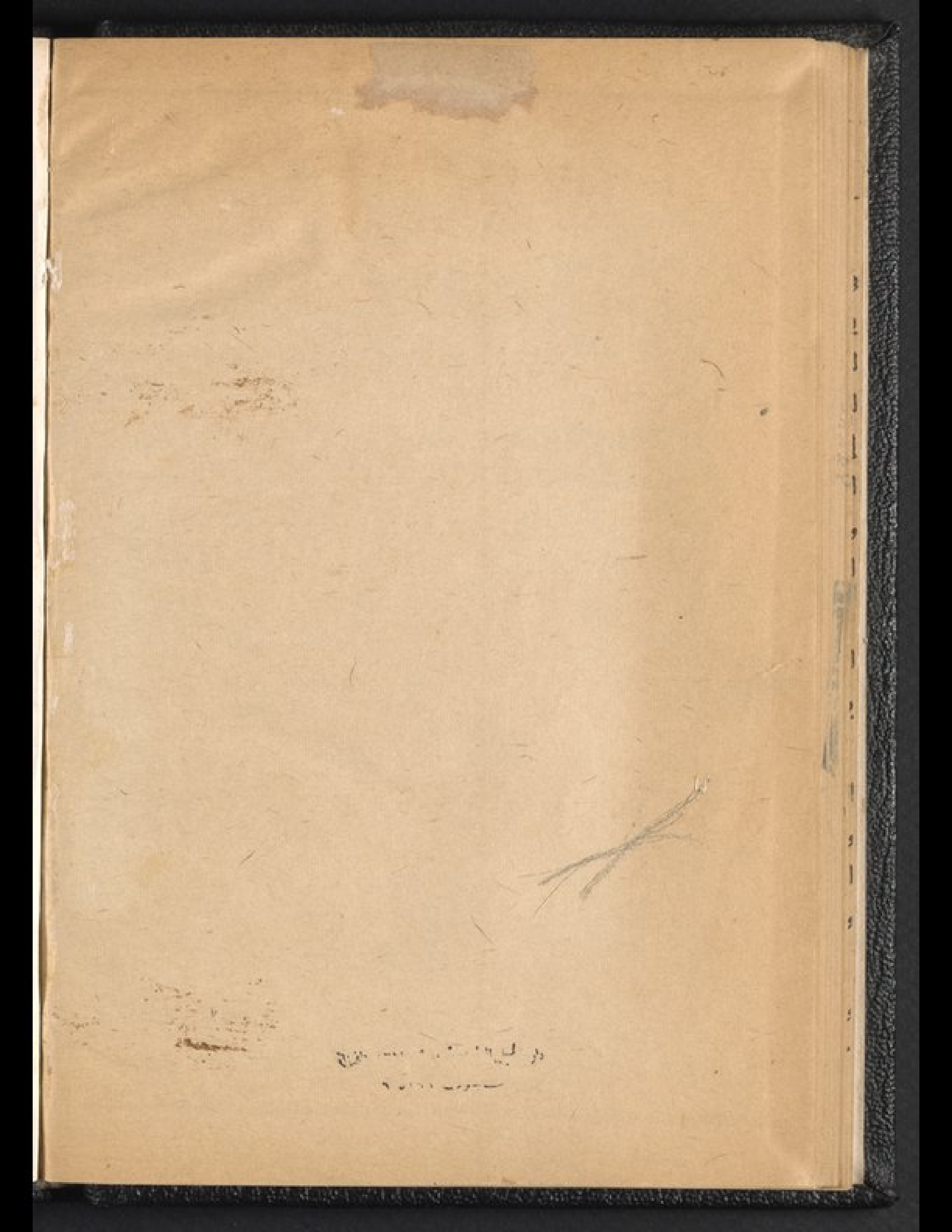
انى أخاف على وطنى . .

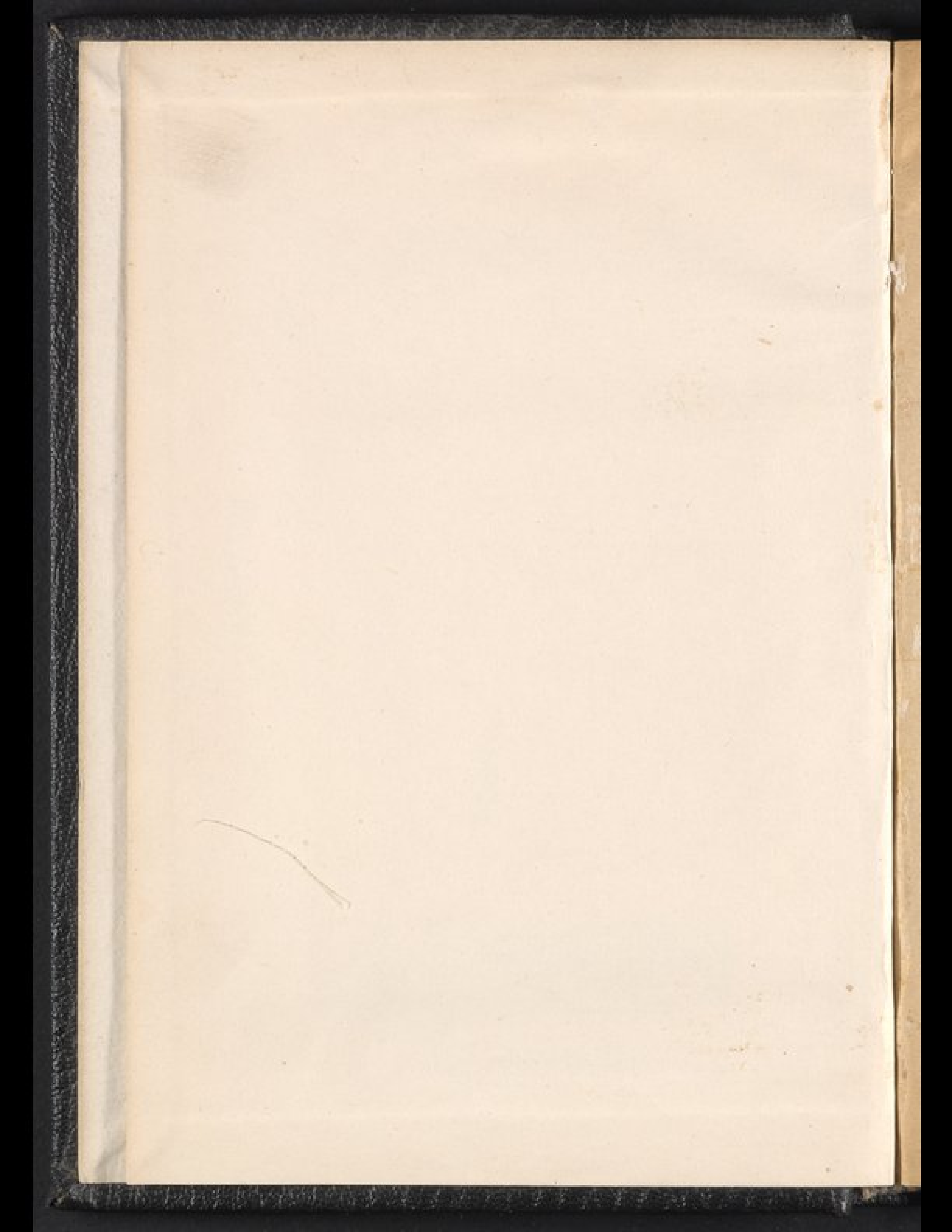


فهرست

صفحة








main
00000056685
CB 113 A7 M8/c.1

